بسم الله الرحمن الرحيم

شرح زاد المعاد

(من قول المؤلف: وكانت سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق)

معالي الشيخ الدكتور

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عضو هيئة كبار العلماء

وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

تاريخ المحاضرة:	1427/1/24هـ	المكان:	جامع عثمان بن عفان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإمام العلامة المحقق المفسر المحدث الفقيه اللغوي البارع، الضارب بجميع صنوف أبواب العلم مدىً بعيدًا، وفي كل باب من أبوابه، بحيث لو قرأ شخص ما كتبه -رحمه الله- في التفسير لشهد له بأنه بلغ الغاية، وأنه لا يُجارَى في هذا الباب ولا في هذا المضمار، فإذا تكلم على آية وأوغل في معناها، وما يستنبط منها، جزمت يقينا بأن مثل هذا العلم الذي أبداه، وهذه الفوائد التي استنبطها، تجزم يقينًا أن مثل حفظ الإنسان وفهم الإنسان بمجردهما لا يدرك به مثل هذا العلم، وقد استنبط من بعض الآيات ما يبهر العقول، ولو لم يكن ذلك إلا ما كتبه حول قول الله -جل وعلا-: {إياك نعبد وإياك نستعين}، وله تنبيهات على آيات لم يسبق إليها- رحمه الله-، وهذا داخل في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «رب مبلَّغ أوعى من سامع».

والقرآن لا تنقضي عجائبه، لا تنقضي عجائبه، ولذا نجد في كلام ابن القيم حول فهم بعض الآيات ما لا يوجد عند غيره -رحمه الله تعالى- - هذا بالنسبة للتفسير وما يتعلق بكتاب الله، وله به الصلة الوثيقة، فهو صاحب تلاوة صاحب قراءة، صاحب تدبر، صاحب تأمل.

وأما بالنسبة للحديث، فمن قرأ في كتابه تهذيب سنن أبي داود جعله -رحمه الله- في مصاف الأئمة المتقدمين في الغوص على العلل الدقيقة الخفية التي لا يدركها كثير من أهل العلم فضلاً عن المتعلمين، إضافة إلى ما يبثه من أحكام وتنبيهات على بعض الأحاديث في كتبه الكثيرة، وفي الكتاب المدروس زاد المعاد ما يشهد بذلك، فلا يخلو باب من أبواب الكتاب المذكور إلا وفيه تنبيه على صحة حديث أو ضعفه، أو على علته، أو انقطاعه، أو وصله بما لا يوجد عند غيره -رحمه الله-.

العلم مرده إلى الرواية، لكن هناك نظر دقيق في الرواية، ولذا تجد أهل العلم يتفاوتون في التصحيح والتضعيف وفي التعليل والسلامة من العلة والمخالفة والاختلاف على الرواة تجدهم يختلفون، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، فتجد ابن القيم -رحمه الله تعالى- - عند المضايق يحرر لك المسألة تحريرًا بالغًا، وتجده يجمع بين الرواية والدراية.

وأما ما يتعلق بالمسائل الفقهية من الحلال والحرام فهذا الكتاب خير شاهد على تبحر هذا الإمام في هذا الباب وهذا المجال، فتجده إذا تطرق لمسألة من المسائل الخلافية، ذكر ما يخطر على البال، وما لا يخطر على البال، وتجده يجمع جمعًا شافيًا كافيًا وافيًا، فإذا بحث مسألة يمكن أن تبحث عند أهل العلم بصفحة أو صفحتين يمكن أن يبحثها في خمسين صفحة، والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة جدًّا في هذا الكتاب فضلاً عن غيره، فإذا بحث المسائل الفقهية المتنازع فيها يسيل واديه -رحمه الله- حتى يملأ الخوابي ويبلغ الروابي.

إذا بحث مسائل الاعتقاد وما يؤثر عن سلف هذه الأمة مما يوضح ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- من الاعتقاد الصحيح فلا مزيد، ومن قرأ في اجتماع الجيوش الإسلامية أو في النونية رأى من ذلك الشيء الذي يبهر، فهو إمام في كل باب وفي كل فن. أما بالنسبة لعلوم العربية فله فيها القدح المعلّا بجميع فروعها الاثني عشر، ومن أراد أن يطلع على شيء من ذلك فليقرأ توجيهه لبعض الأوجه الإعرابية في كتبه، وفي هذا الكتاب شيء ليس بالقليل من توجيه بعض الآيات، وما جاء في بعض الأحاديث ما يشكل إعرابه، وكتابه بدائع الفوائد مملوء من المسائل المتعلقة بالعربية.

أقول: هذا هذا الإمام متفنن، وعلمه كما قدمت قد يتعجب منه الإنسان في عمر يسير أحاط بهذه العلوم، وإن تميز بالفهم والحافظة، لكن غيره كثير ممن تميز، لكن لا تجد عند كثير من أهل العلم مثل هذه التحقيقات ومثل هذه التحريرات، وكل هذا مما لا يدرك إلا بالإخلاص الصادق.

فابن القيم -رحمه الله- تُشم رائحة الإخلاص من كتاباته، تشم رائحة الإخلاص من كتاباته، فتجده في مدارج السالكين في كثير من المواضع تجد التواضع الجم، والاعتراف بالجهل والعجز، وفي طريق الهجرتين، وإغاثة اللهفان من ذلك شيء كثير، في طريق الهجرتين لما ذكر حال المقربين، وهذه ذكرتها مرارًا، لكن لا يمنع أن تذكر في هذه المناسبة، لما ذكر حال المقربين، وشرح المنهج والطريقة التي يسيرون عليها في ليلهم ونهارهم، يجزم القارئ أنه يتحدث عن نفسه، هذا منهجه، وهذه طريقته، وهذا ديدنه، ومع ذلك يقسم -رحمه الله- أنه ما شم لهم رائحة، قد يقول قائل: إننا نقرأ أحيانًا في كلام ابن القيم ما يدل على شيء من رؤية ما كتبه -رحمه الله- من قبل نفسه، ففي مباحث التوبة التي أفاض فيها في مدارج السالكين وجه طالب العلم أن يعنى بهذا الفصل من هذا الكتاب، وأن ينظر إليه باهتمام بالغ، ثم قال: فاقرأ هذا الفصل، واهتم به، واعتني به علك ألا تجده في مصنف آخر ألبتة، علك ألا تجده في مصنف آخر ألبتة.

الكلام صحيح يعني مع ما اطلعنا عليه من الكتب التي تعنى بالتوبة ما وجدنا أحدًا تكلم بكلام مثل كلام ابن القيم، لكن هل يقال مثل هذا إن ابن القيم رأى عمله، وأعجبه عمله، وأعجب به مما يخدش الإخلا،ص هو يستثير همة طالب العلم أن يستفيد من هذا الكلام، ولا يظن به أنه يترفع بهذا الكلام، أو يعجب بهذا الكلام، أو أنه رأى عمله وأعجب به. مواطن كثيرة جدًّا نقرؤها لابن القيم يهضم فيها نفسه، والله المستعان.

الموضوع الذي نحن بصدده يتعلق بالآداب والرقائق الآداب والرقائق صِبغة للكتاب كله، حتى إذا ساق الأحكام أدخل فيها ما ينبِّه القلب، فهي صبغة عامة للكتاب، ولذا الإحاطة بجميع ما في الكتاب مما يتعلق بالأخلاق والرقائق مستحيلة إلا باستعراض تام واستقراء للكتاب. وكثير من العلماء والفقهاء على وجه الخصوص يسردون المسائل العلمية بأدلتها وخلافها وما قيل فيها

بذيولها، لكن هل يستفيد القلب من استعراض هذه المسائل، تجدها عراكًا وقولًا وقال، فإن قيل قلنا، وكذا، وأدلة من الكتاب والسنة، وأهل العلم عمدتهم على نصوص الكتاب والسنة، فكتب الفقه بحاجة إلى مثل هذا التصرف من ابن القيم، ومما تتميز به منظومة ابن عبدالقوي في الفقه عقد الفرائد، منظومة ابن عبدالقوي -رحمه الله- الدالية الطويلة علها أن تكون في اثني عشر ألف بيت أو أكثر في مجلدين مطبوع، وهي نظم للمقنع، ما تتميز به هذه المنظومة على قوتها ومتانتها وموضوعها في الحلال والحرام، تتميز به أنه استهل الأبواب بما يذكر بالله -جل وعلا.

فإذا قرأت مقدمة الجنائز أو الكسوف أو الاستسقاء أو البيوع:

إياك والمال الحرام مورثًا

والفرائض وغيرها من الأبواب تجده يستهل هذه الأبواب بأربعة أبيات، خمسة أبيات تربطك بالله -جل وعلا- وتجعلك تحرص على فهم هذه الأحكام؛ لتعمل بها؛ لأننا مع الأسف نشاهد، وشاهدنا، وأدركنا من يقرأ ويهتم بهذه الأحكام، ويعرف الأحكام العملية بأدلتها، لكن قد يتخلف العمل عنده، تجد عليه ما يلاحظ، ولو استعمل هذا الأسلوب من العلامة ابن القيم -رحمه الله- أو من ابن عبدالقوي أو من غيرهما من يعنى بهذا الشأن ما وجدنا الانفصام أو الانفصال بين العلم والعمل، ابن القيم تجده في كل الأبواب يطرح قضية ما يحيي القلب فيما يتعلق بهذا الباب موضوع الدرس، مركب من شقين؛ هما الآداب والرقائق، الآداب والرقائق، فالآداب جمع أدب، الآداب لأهل الحديث بها عناية فائقة، صنفوا فيها الكتب المفردة، وأدخلوها في مصنفاتهم الجوامع.

البخاري له كتاب الأدب في صحيحه، وله الأدب المفرد، البيهقي كذلك له أدب مفرد، وأيضًا تحدث عن الآداب مع أن صبغة الكتاب العامة أحاديث أحكام. المقصود أن العلماء عُنوا بهذا الجانب، ويقصد بالآداب التي يتحدث عنها أهل العلم أعني علم الكتاب والسنة المراد بها ما يتعلق بأدب النفس وتهذيبها، أما ما يتعلق بأدب الدرس الذي له كيانه وله استقلاله، ويطلق، وإذا أطلق الأدب انصرف إليه مع الأسف، فإنه يُعنى به أدب الدرس الذي اشتملت كثير من المصنفات فيه المطولة والمختصرة والمتوسطة على ما يناقض الأدب الشرعي، فعندنا أدب شرعي، وهو المراد عند أهل العلم، وهو المقصود بهذا الدرس، وهناك أدب يسمونه أدب درس، من كتبه الأغاني والعقد الفريد، كتب كثيرة جدًّا، وعيون الأخبار، وفيه شيء من الأدب العفيف المحتشم، وفيه أيضًا الأدب الماجن، فيه الشيء الكثير.

وعلى كل حال طالب العلم يهمه أدب النفس المستنبَط والمستوحَى من كتاب الله وسنة نبيه- عليه الصلاة والسلام-، ومرجعه في ذلك كتب السنة، كتب السنة، وهو أيضًا مبثوث في كتب المفسرين حول الآيات التي تُعنى بالآداب والأخلاق، يرجع في ذلك إلى كتب السنة سواء كان الأدب مفردًا أو ضمن الجوامع، ويُرجع أيضًا إلى الكتب التي ألفها العلماء في الأدب المشتملة

على النصوص وعلى أقوال أهل العلم، ومن أهمها الآداب الشرعية لابن مفلح ومنظومة الآداب لابن عبدالقوي مع شروحها، وأيضًا الوصية المنظومة الميمية للشيخ حافظ الحكمي فيها كثير من الوصايا والآداب تهم طالب العلم.

إذا عرفنا هذا فالآداب جمع أدب، وهو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً، استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً، عبَّر بعضهم عنه بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق، الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستحسنات، وقيل: هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك، تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك، وقيل: إنه مأخوذ من المأدبة، وهي الدعوة إلى الطعام، سُمِّي بذلك؛ لأنه يدعى إليه، الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه ترجم ترجمة كبرى فقال: كتاب الأدب، باب البر والصلة، باب البر والصلة، الأدب يقصد به التعامل مع الآخرين، فترجم بالترجمة الكبرى العامة باب الأدب، ثم جاء بترجمة جزئية تدخل في هذه الترجمة الكبرى باب البر والصلة، فالبر والصلة من الأدب، فبدأ -رحمه الله تعالى- بما يتعلق بأقرب الناس إليك، وهما الوالدان، فالبر يتعلق بالوالدين، والصلة تتعلق بالأقارب، صلة الأرحام تتعلق بالأقارب، فجعل الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- البر أو الصلة من الأدب.

وأما النووي في صحيح مسلم نعرف جميعًا أن صحيح الإمام مسلم غير مترجم، يعني ما فيه أبواب ما تُرجم، إنما فيه الحديث السرد بدون تراجم، النووي ترجم في شرح مسلم بكتاب البر والصلة والآداب، البر والصلة والآداب، فجعل البخاري -رحمه الله تعالى- البر والصلة من أقسام الأدب، فجعل الأدب يشمل البر والصلة وغير هاتين الكلمتين مما يتعامل به مع القريب والبعيد، والنووي جعل البر والصلة قسيمين للأدب، قسيمين وليسا قسمًا منه، إنما جعلهما قسيمين للأدب، ووجهة نظره ظاهرة، إذا أردنا أن نُقسم التعامل مع الناس جعلناهم ثلاثة أصناف أقرب الناس، ثم من يليهم من الأرحام، ثم سائر الناس، فجعل البر للوالدين، والصلة لذوي الأرحام، والأدب مع سائر الناس، فجعل الأدب قسيمًا للبر والصلة.

وعلى كل حال المسألة اصطلاحية، فالأدب كلمة عامة شاملة تشمل التعامل مع القريب والبعيد، بينما النووي جعل الأدب مع البعيد، والبر مع الوالدين، والصلة مع ذوي الأرحام والأقارب، ولا مشاحة في الاصطلاح؛ لأن القصد معلوم بالنسبة للبر والصلة من الأدب في كتابنا هذا في زاد المعاد، وكتاب زاد المعاد يشرح فيه هدي النبي -عليه الصلاة والسلام-، هدي النبي -عليه الصلاة والسلام-، معلوم أن النبي -عليه الصلاة والسلام- توفي والده وأمه حامل به، توفي وهو -عليه الصلاة والسلام- حمل، ولما بلغ -صلى الله عليه وسلم- ست سنين توفيت والدته آمنة بنت وهب، فلم يبقَ له والدان يبرهما.

قد يقول قائل: إذا مات الوالدان ما يبقى من البر شيء؟ يبقى، لكن هذا بالنسبة للوالدين المسلمين النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: بقي من برهما الصلاة عليهما والدعاء لهما

والصدقة وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، المقصود أنه يبقى من بر الإنسان بوالديه بعد موتهما، لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- حتى عن الاستغفار لهما؛ لأنهما ماتا كافرين، لما بلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- ثماني سنين مات جده عبدالمطلب، فكان أقرب الناس إليه أعمامه، فكان يصلهم، ويقرر -عليه الصلاة والسلام- أن عم الرجل صنو أبيه، فالعم مثل الأب، تجب صلته في الحديث المتفق على صحته: «عم الرجل صنو أبيه» يعني مثل أبيه، هذا ما يتعلق بالأقربين.

أما ما يتعلق بمعاملته مع أزواجه ومعاشرته أهله فكان مثالاً للزوج الكامل، والمراد بالكمال هنا الكمال البشري، فهو أكمل البشر -عليه الصلاة والسلام-، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الكتاب المقرر: وكانت سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخُلق، وكان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها، وكانت إذا هويت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه، وكان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقول -عليه الصلاة والسلام-: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»، وكان- عليه الصلاة والسلام- إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن، واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة فخصّها بالليل؛ لأن القسم عماده الليل، وأما بالنسبة للنهار فليس محلاً للقسم، إنما الأمر فيه أوسع، فيزار الجميع، لكن لا يعني أنه يخصص النهار لواحدة من نسائه ويترك البواقي، أو لبعضهن دون بعض، لا، العدل واجب، لكن لو ما حضر اليوم في النهار وغدًا ما حضر بالنهار ما تطالبه الزوجة لماذا لم تحضر؟ لأن عماد القسم الليل.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: كان يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القَسم، وقل يوم إلا كان يطوف علينا جميعًا، هذا ما يتعلق بأزواجه.

وماذا عن أصحابه -عليه الصلاة والسلام-؟ كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعامل أصحابه بيعًا وشراءً، وشارك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- السائب، فلما قدم السائب قال: أما تعرفني؟ قال: «أما كنت شريكي؟ فنعم الشريك كنت، لا تداري ولا تماري»، قاله لشريكه السائب، وأهدى -عليه الصلاة والسلام-، وقبل الهدية، وأثاب عليها، ووهب واتهب. أما في بيعه وشرائه فكان مثالاً للتسامح، وحث على التسامح في القضاء والاقتضاء، واشترى من جابر الجمل، وماكسه فيه، فلما قدم المدينة وزن له الثمن ثم أعاد إليه الجمل «أتراني ماكستك لآخذ جملك» هذا مثال، واقتدى به أصحابه في حسن التعامل في البيع والشراء، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ومعولهم في ذلك الاقتداء به -عليه الصلاة والسلام-، حتى صار من تمام نصحهم لمن يعاملهم ما يُعد في أعراف التجار غفلة.

جرير بن عبدالله اشترى فرسًا بثلاثمائة، ثم لما تم العقد ما قال: فرصة، نتفرق حتى ما يرجع، قال: لا جملك يستحق أكثر من ثلاثمائة، قال: أربعمائة، قال: اشتريت، فلما تم العقد، قال:

جملك يستحق أكثر، فما زال به حتى أوصله إلى الثمان مائة، لكن الآن لو يوجد مثل هذا في أسواق المسلمين مع هذه الغربة التي نعيشها ومع هذا التكالب على الدنيا لقالوا: مسكين مسكين مغفل، بل يرمون بالتغفيل من لا يماكس، يعني بمجرد ما يقال له: كم هذه السلعة؟ بمائة ريال، يخرج المائة من الجيب ويدفعها، هذا مسكين، والصحابة بايعوا النبي -عليه الصلاة والسلام- على النصح لكل مسلم، وليس الأمر خاصًا بهم، فالنصح لكل مسلم هو الدين، فالنبي- عليه الصلاة والسلام- قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم»، للناس كلهم تنصح.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يمازح أصحابه، وهذا من أدبه -عليه الصلاة والسلام-، ويقول في مزاحه الحق.

ومع الأسف أن تجد بعض طلاب العلم يظن أن المزاح مع الإخوان تجد الناس في هذا على طرفي نقيض؛ منهم من يمزح ويسترسل في مزاحه، ويضطر أحيانًا في مزاحه إلى أن يقول الحق وغير الحق، ويسخر من الناس، ويتعالى عليهم لمزاحه، هذا طرف، الطرف الآخر من يقطع الباب، ويحسم المادة، حتى أثر عن بعض طلاب العلم أنه لا يرد السلام، نسأل الله السلامة والعافية، وذُكر لي عن شخص معروف له منصب فقال: ناقشته في الموضوع قال: في كتب الأدب أدب القضاء أنه إذا كان رد السلام يذهب هيبة القاضي فإنه حينئذٍ لا يرد السلام، قلت: والله لو أثرت بالسند الصحيح عن أبي بكر الصديق لما قبلناه، ونحن نعرف أن رد السلام واجب.

فأقول: الشيطان يسوّل لبعض الناس ويملي لهم، نعم التوازن قد يكون صعبًا على كثير من الناس، فيحتاج إلى حسم للمادة، فيقطع الصلة بالناس، وينطوي على نفسه؛ لأنه إذا فتح الباب ما استطاع أن يتزن ويتوسط في أمره، نقول: مثل هذا إذا غلب على ظنه أنه يجره مثل هذا هذه الخلطة ومثل هذا المزاح ومثل هذا الاسترسال إلى أن يدخل في حيز المحظور نقول: السلامة لا يعدلها شيء، وهناك مضايق، هناك مضايق قد لا يتخلص منها كثير من الناس، يعني كثير من الناس يصاب بمصيبة ويريد أن يوازن بين فعل النبي -عليه الصلاة والسلام- من حزن وبين الرضا بالقدر، فلا يستطيع، هذا صعب جدًّا على كثير من النفوس، فتجده إما أن يسترسل مع الحزن، ويبكي، ويرتكب المحظور، أو يفعل كما فعل بعض العبّاد لما مات ابنه ضحك، لما مات ابنه ضحك لماذا؟

لأنه لا يستطيع أن يوازن بين بكاء وقلب يحزن وعين تدمع مع الرضا والتسليم للقدر، فقال هو يقطع هذه المادة ويحسمها بأن يضحك، لكن هدي النبي -عليه الصلاة والسلام- أكمل هدي، التوسط في الأمور، ووجود مثل هذه المضائق؛ لتتبين أقدار الناس، ولا شك أن من الناس من

هو صاحب همة وعزيمة، أموره كلها مخطومة بخطام الشرع وزمامه، وبعض الناس تجتاله المواقف والأحداث يمينًا تارة وشمالاً أخرى.

كان -عليه الصلاة والسلام- يمازح أصحابه ويقول في مزاحه الحق، ويوري- التورية أن يفهم السامع منك غير مرادك-، لكن التورية إذا ارتكبت من أجل تضييع حق لمسلم لا تجوز، أما إذا لم يترتب عليها تضييع وأكل حق لمسلم، وترتب عليها مصلحة، فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يوري ولا يقول في توريته إلا الحق مثل أن يريد جهة يقصدها فيسأل عن غيرها كيف طريقها يريد إلى جهة الشمال مثلاً فيسأل عن الجنوب، كيف طريقه إذا بغينا كذا من أين نذهب؟ إذا أردنا كذا وهو يريد الشمال، مثل هذا تورية، مثل أن يريد جهة يقصدها، فيسأل عن غيرها كيف طريقها؟ وكيف مياهها ومسلكها؟ أو نحو ذلك، وكان يشير على أصحابه ويستشيرهم، وقد أمر بذلك، وهو المؤيد بالوحي.

هو المؤيد بالوحي، ونزل عليه قوله -جل وعلا-: {وشاورهم في الأمر}، وبعض الناس إذا أراد شيئًا ركب رأيه ولم يستخر ولم يستشر، وتأتي النتائج في الغالب عكسية.

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

مجرد ما تخطر له فكرة ينفذ فلا يستشير ولا يستخير، ومثل هذا يكون في الغالب حظه الندم، وكان -عليه الصلاة والسلام- يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويجيب الدعوة هذا من أدبه الرفيع -عليه الصلاة والسلام- يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويجيب الدعوة، ويمشي مع الأرملة -عليه الصلاة والسلام- والمسكين، ويمشي مع الضعيف في حوائجهم، يمشي مع هؤلاء يمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف، ويقضي حوائجهم، وبعض الناس يترفع عن أن يغشى ويرتاد مجالسه الضعفاء والمساكين، بعض الناس يخصص مجالسه للملأ وعلية القوم، ويترفع عن مجالسة الفقراء والمساكين، وأدركنا من شيوخنا من يحضر طعامه باستمرار الفقراء والمساكين، ويتقدمون الأغنياء، ولا يقال لهم شيء، ولا يدعّون، ولا يُنكرون، ولا يمنعون. كل هذا اقتداء به -عليه الصلاة والسلام-، فقد أدار اللبن على أهل الصفة قبل أن يشرب -عليه الصلاة والسلام- وهم فقراء المسلمين.

سمع -عليه الصلاة والسلام- مديح الشعر وأثاب عليه، ولكن ما قيل فيه من المديح فهو جزء يسير جدًّا من محامده، وأثاب على الحق، أثاب على هذا الجزء اليسير من حقه -عليه الصلاة والسلام-، هذا بالنسبة لما سمعه -عليه الصلاة والسلام-، أما ما مُدح به بعده مما ارتكبت فيه المخالفات الصريحة لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، فقد وقع في بعض المدائح الشرك الأكبر، ولم يسمع -عليه الصلاة والسلام- من هذا النوع شيئًا، وإلا لبادر بإنكاره، فسمع النبي -عليه الصلاة والسلام- المديح، وأثاب على الحق؛ لأن ما قيل فيه بحضرته وأقره فهو حق، وأما مدح غيره من الناس فأكثر ما يكون بالكذب، يكون

بالمبالغة، يكون بالإطراء، يكون بما لا يستحقه الإنسان، فأكثر ما يكون بالكذب، فلذلك أمر -عليه الصلاة والسلام- أن يُحثى في وجوه المداحين التراب، نجد مع الأسف حتى في مجالس العلم المدح بما في الإنسان وبما ليس فيه، والأصل أن باب المدح لا سيما وأن كثيرًا من الناس يتأثر بالمدح، فإذا كان الإنسان يتأثر بالمدح هذا فلا يجوز مدحه وإلا إذا كان لا يتأثر فالنبي -عليه الصلاة والسلام- مدح بعض الصحابة في وجوههم، فإذا كان ممن يتأثر فمثل هذا يحثو في وجه المداح التراب، أو يوقفه عند حده إذا سمع من المدح. والجزاء من جنس العمل.

والتجربة تشهد بأن من قبل المدح بما فيه سمع الذم بما فيه، من قبل المدح بما فيه سمع وفرح به سمع الذم بما فيه، وأما من سمع المدح بما ليس فيه سمع الذم بما ليس فيه، التجربة موجودة في هذا، هذا أمر مجرب، ومع الأسف أننا نجد بعض من ينتسب إلى العلم، وما كنا نرى من شيوخنا مثل هذا، لكن شيء وفد إلينا، ودرج بيننا، وصار لا يُنكر بيننا، بل صارت بعض الجهات العلمية قيامها على هذا، أرسل لفلان خطاب شكر، وأرسل لفلان كذا، وأرسل، وأما بالنسبة لمناقشات الرسائل العلمية فمبناها على هذا، كما هو معلوم، الطالب يمدح المشرف، والمشرف يمدح الطالب، والمناقش، وهكذا، ولا تسمع أحيانًا استنكارًا لشيء مثل هذا.

لذا وجدت أمور مضحكة، يعني شخص يقدم لآخر من طلاب العلم قد زوده بسيرته الذاتية من غير طلب، فقرأها المقدم، ثم استهل المحاضر محاضرته بأن اتجه إلى هذا المقدم وقال له: سامحك الله، قطعت عنق صاحبك، وهو الذي أعطاه الكلام كله، فأقول: مثل هذا يقضي على الإخلاص قضاءً مبرمًا.

ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الفوائد يقول: إذا حدثتك نفسك بالإخلاص، إذا حدثتك نفسك بالإخلاص فأقبل على حب المدح والثناء فاذبحه بسكين علمك أنه لا أحد ينفع مدحه، ولا يضر ذمه إلا الله -جل وعلا-، ثم قال: وأقبل على الطمع فاذبحه بسكين يأسك من المخلوقين، وأن جميع ما يرد إليك إنما هو من الله -جل وعلا-، فليكن ارتباطك بالله -جل وعلا-، يعني لو أن الواحد منا قيل له: إن الأمير فلانًا أو الوزير فلانًا تحدث عنك في مجلسه البارحة، وأثنى عليك الليلة هذه، أكيد أنه ما ينام من الفرح، لكن لو قيل له أو سمع: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»، هذا لا يحرك شعرة عنده لماذا؟ لأن قلوبنا مرتبطة بالدنيا، ما تعلقت بالآخرة وما يقرب إلى الله -جل وعلا-.

فعلى الإنسان أن يعيد الحسابات، ويتعامل مع الله بوضوح؛ لأنه يتعامل مع من لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، كون الإنسان يتمسكن، أو يتماوت، أو يظهر الصلاح بين الناس فهو يتعامل مع من لا تخفى عليه خافية، فلننتبه إلى مثل هذا، ثم قال -رحمه الله تعالى-: فصل: وسابق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنفسه على الأقدام، وصارع، وخصف نعله بيده، ورقع ثوبه، ورقع دلوه، وحلب شاته، وفلى ثوبه، ما معنى فلى ثوبه؟ قتل القمل الذي فيه، قتل القمل

الذي فيه، وفلى ثوبه، وخدم أهله ونفسه، وحمل مع الصحابة اللبِن في بناء المسجد، وربط على بطنه الحجر من الجوع تارة، وشبع تارة، جاع ليصبر، وشبع ليشكر -عليه الصلاة والسلام-، وأضاف وأضيف.

ومع الأسف أن بعض الناس إذا دُعي لضيافة أو غيرها لا يستجيب، ويرى أن اختلاطه بالناس لا سيما إخوانه وأقرانه مما يذهب هيبته، والله المستعان، إلى أن قال -رحمه الله-: وكان -عليه الصلاة والسلام- أحسن الناس معاملة، وكان إذا استسلف سلفًا قضى خيرًا منه، وكان إذا استسلف من رجل سلفًا قضاه إياه، ودعا له، فقال: «بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء»، واقترض بعيرًا فجاء صاحبه يتقاضاه، فأغلظ للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهم به أصحابه أن يوقعوا به، أغلظ على النبي -عليه الصلاة والسلام- فهمَّ به أصحابه فقال -صلى الله عليه وسلم-: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»، وتقاضاه غريم له دينًا، فأغلظ عليه، فهمّ به عمر بن الخطاب فقال: «مه يا عمر، كنت- يعني نفسه- أحوج الناس إلى أن تأمرني بالوفاء، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر».

الخطابات الشرعية في المسائل التي فيها أكثر من طرف، لكل طرف منها ما يناسبه، لكل طرف منها ما يناسبه، فهنا المدين يؤمر بالقضاء، والدائن يؤمر بالصبر والإنظار، مسألة تتكرر كثيرًا، تجد شيخًا يأتي إلى محاضرة، ثم بعد ذلك يتأخر قليلاً، ثم تقام الصلاة يدركها ويدرك بعضها، ثم يتجه باللوم إلى الإمام نقول: لا يا أخي، اتجه باللوم إلى نفسك، لماذا تتأخر؟ نعم قد يكون له ظرف زحام في طريق أو شيء، لكن أنت عاتب نفسك يا أخي. وأيضًا من خطابات الشرع ما يتجه إلى الإمام: هذا شخص له قدره، وجاء على حد زعمه بطلبك لينفع الناس، وأنت مأجور، إن شاء الله، على طلبه.

المقصود أن خطابات الشرع إذا كان هناك أكثر من طرف، فلكل طرف ما يناسبه من الخطابات، فليس لهذا الشيخ أن يتجه إلى الإمام، كثير من الناس تفوته الصلاة تقول له: لماذا فاتتك الصلاة يقول: والله الإمام استعجل، أو الإمام ما طول القراءة. يا أخي ارجع إلى نفسك فلمها، لماذا تتأخر وقد سمعت: حي على الصلاة، حي على الفلاح؟ وبالمقابل الإمام إذا كان يستعجل يُوجّه إليه أيضًا أن يرفق بالمأمومين، وأن يجعلهم يدركون الصلاة معه.

وباعه -عليه الصلاة والسلام- يهوديٌ بيعًا إلى أجل، فجاءه قبل الأجل يتقاضاه، فجاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه، فقال: «لم يحل الأجل»، فقال اليهودي: إنكم لمطل يا بني عبدالمطلب، يعني تؤخرون الأجل، فهمَّ به أصحابه فنهاهم، فلم يزده ذلك إلا حلمًا -عليه الصلاة والسلام- فقال اليهودي: كل شيء منه قد عرفته من علامات النبوة، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فأردت أن أعرفها، فأسلم اليهودي، إلى غير ذلك مما يتعلق بأخلاقه وآدابه -عليه الصلاة والسلام-.

فترى الإمام ابن القيم يسوق الأدب النبوي بدليله من الكتاب والسنة، وأحيانًا يسوقه بالنص بنص ما أُثر عنه -عليه الصلاة والسلام-، تجده يسبك الكلام بنصوص أحاديث. لا يمكن في هذه العجالة وفي هذه المدة اليسيرة أن نستقصي ما ذكره ابن القيم في هذا الكتاب الذي خصصه مؤلفه لهدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإذا كان ابن القيم قد أتى على كثير مما أسعفته به ذاكرته؛ لأنه ألف الكتاب في حال السفر، وليس لديه مراجع، والمجزوم به أن المؤلف مهما بلغ من الإحاطة فلن يستطيع أن يوفي الموضوع حقه؛ لأن أدبه -عليه الصلاة والسلام- وخلقه ترجمة عملية للدين بجميع فروعه، قالت عائشة -رضي الله عنها-: كان خلقه القرآن. في المسند، مسند الإمام أحمد قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: كان خلقه القرآن.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: ومعنى هذا أنه -عليه الصلاة والسلام- صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخلقًا تطبَّعه، يعني استفاده من القرآن فصار يدور مع القرآن أمرًا ونهيًا وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جُبل عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكان خلقه، وكل خلق جميل كما ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- قال: خدمت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين، فما قال لي: أف قط عشر سنين.

الإنسان لو يجلس عند شخص آخر ساعة وجد منه التذمر والتأفف وضيق الخلُق وضيق النفس، عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته، وكان -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خُلُقًا، ولا مسست خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرقه -عليه الصلاة والسلام-.

مما يتداوله الناس في هذا الباب ويرفعونه إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- حديث: «أدبني ربي، فأحسن تأديب» لكنه حديث ضعيف، حديث ضعيف رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، والعسكري في الأمثال، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى في الثامن عشر: إن معناه صحيح، ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت. يقول القرطبي: وقد روي عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «أدبني ربي، أدبني ربي تأديبًا حسنًا؛ إذ قال: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، فلما قبلتُ ذلك منه قال: {إنك لعلى خلق عظيم}»، وأما حديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق أو صالح الأخلاق» فهو حديث جيد بطرقه يبلغ درجة الصحيح لغيره.

وليعلم أن المراد بالأدب ما قدمناه؛ لأن كثيرًا من الناس يسمع الحث على الأدب ما قدمنا أن المراد به أدب النفس، والمراد به الأدب الشرعي، ما جاء عن الله وعن رسوله -عليه الصلاة

والسلام- قولاً وفعلاً، وأما ما تعارف الناس عليه واصطلحوا عليه من أدب الدرس الذي مؤلفاته مشحونة بكثير من الإسفاف، من سفاسف الأمور، كثير من المجون، كثير من الأمور التي ينبغي أن يتحاشاه عامة المسلمين فضلاً عن العلماء وطلاب العلم، ومع الأسف أنه يوجد لبعض العلماء مؤلفات في الأدب الذي هو أدب الدرس، وفيها شيء من هذا الإسفاف، علماء فمن قرأ في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء تعجب كيف لعالم له علاقة بكتاب الله- جل وعلا-، ومع ذلك يكتب مثل هذا الكتاب.

ابن الوردي له كتاب في غاية السفول والإسفاف، وذكر في مقدمته أن بعض الناس قد ينتقد أن يصدر هذا الكتاب من شخص قاضٍ ومفتٍ، وما علموا أن الأدب شيء، والعلم شيء آخر، فهم خاطئ، هذا فصل الأدب عن الدين لا وجه له، بل الدين حاكم على كل شيء، حاكم على كل شيء، أما ما يتعلق بالشق الثاني من عنوان الدرس، وهو الرقائق، فقد ترجم الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- بكتاب الرقاق، بكتاب الرقاق، قال ابن حجر: قال مُغْلَطَاي: عبر جماعة من العلماء في كتبهم بالرقائق، البخاري قال: كتاب الرقاق، وقال مُغْلَطَاي: عبر جماعة من العلماء في كتبهم بالرقائق، قال ابن حجر: منهم ابن المبارك، وله كتاب كبير في الزهد والرقائق، والنسائي في الكبرى، وروايته كذلك، يعني في البخاري في نسخة معتمدة من رواية النسفي عن البخاري، والمعنى واحد، الرقاق والرقائق معناهما واحد، وكل منهما جمع رقيقة.

سميت هذه الأحاديث المدرجة تحت هذه الترجمة بهذا الاسم؛ لأن في كل منها ما يحدث في القلب رقة، هذه الأحاديث المدونة التي أدرجها الإمام البخاري وغيره ممن كتب في هذا الباب هذه الأحاديث وهذه النصوص تحدث في القلب رقة، ولا غنى لأحد عن هذه الرقائق، هي السياط سياط القلوب التي تدعو الإنسان وتحمله على العمل بما علم، وإلا فقد يغفل الإنسان إذا كان اشتغاله مع الأحكام وعلوم الآلة مثلاً لا شك أنه ينشغل بها، ثم لا يلبث أن يتخلف عن العمل، إذا قرأ في مثل هذه الكتب وهذه الأبواب الرقاق التي هي سياط للقلوب بعثته هذه على العمل، والإمام البخاري -رحمه الله تعالى- أبدع أيما إبداع في هذا الكتاب، ضمن كتابه العظيم الصحيح، وأورد فيه النصوص الكثيرة تحت تراجم دقيقة برع فيها الإمام البخاري، وأردفها بما أثره عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين مما لا يوجد في غيره، فعلى طالب العلم أن يُعنى به، أعني كتاب الرقاق من صحيح البخاري.

قال أهل اللغة: الرقة والرحمة ضد الغِلَظ، ويقال لكثير الحياء: رق وجهه استحياءً، وقال الراغب: متى كانت الرقة في جسم فضدها الصفاقة، متى كانت الرقة في جسم فضدها الصفاقة، كثوب رقيق وثوب صفيق، ومتى كانت في نفس فضدها القسوة، كرقيق القلب وقاسي القلب، وجمع كثير من العلماء بين الزهد والرقائق، كتبوا في الباب كتبًا أسموها الزهد والرقائق، فما علاقة الزهد بالرقائق؟

الزهد نتيجة لإدامة النظر في الرقائق، يعني متى يزهد الإنسان؟ إذا تلقى ما جاءه عن الله وعن رسوله -عليه الصلاة والسلام- وما جاء عن سلف هذه الأمة من الرقائق، حينئذٍ يزهد في الدنيا، والزهد مطلوب؛ لأن الإنسان إنما خلق لغاية، وهي تحقيق العبودية لله -جل وعلا- مع عمارة الأرض التي لا تقوم العبودية إلا بها، إنما الهدف الأصلي تحقيق العبودية، عمارة الأرض {ولا تنس نصيبك من الدنيا} من أجل تحقيق هذا الهدف، فإذا أدام النظر في الرقائق حصلت له هذه المنقبة التي هي الزهد.

ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه زاد المعاد لا يكاد يخلو باب من أبوابه من لفتة توجيهية تذكِّر القلب وتلفته إلى تحقيق ما خلق من أجله، فنذكر لذلك أمثلة من أعظم ما يوعظ به الإنسان، ويرقق قلبه، ويذكر به القرآن، القرآن الكريم ابن القيم -رحمه الله- في هذا الكتاب عني عناية فائقة بما يتعلق بكتاب الله -عز وجل- قراءة وحفظًا وفهما وتدبرًا واستنباطًا وتعلمًا وتعليمًا، لماذا؟ لأنه أولى ما يُذَكر به، فأولى ما يذكر به من يخاف الله -عز وجل-، ويرجو ثوابه كما قال الله -جل وعلا- في آخر سورة ق: {نحن أعلم ما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} قال -رحمه الله: فصل في هديه -صلى الله عليه وسلم- في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه عند قراءته واستماعه وتحسين صوته به وتوابع ذلك:

كان له -صلى الله عليه وسلم- حزب يقرؤه، ولا يخلُّ به، وكانت قراءته -عليه الصلاة والسلام- ترتيلاً امتثالاً للأمر الإلهي: {ترتيلاً} لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد الرحمن، ويمد الرحيم، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فكان يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وربما كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، وكان تعوذه قبل القراءة وصنيعه -عليه الصلاة والسلام- يُفسر قول الله -جل وعلا-: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله}، وأن المراد فإذا قرأت يعني أردت القراءة، وليس معناها إذا فرغت من القراءة كما يقول بعض أهل الظاهر، صنيعه يفسر المراد بالفعل الماضي؛ لأن الفعل الماضي يأتي ويراد به الفراغ من الشيء، وهذا هو الأصل في الفعل الماضي يأتي ويراد به الشروع في الفعل، ويأتي ويراد به إرادة الفعل، إرادة الفعل، وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع -عليه الصلاة والسلام- لسماع القرآن حتى ذرفت عيناه، وكان يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ومتوضئًا ومحدثًا، ولم يك يمنعه من قراءته إلا الجنابة.

ثم ذكر -رحمه الله- كيفية قراءته -عليه الصلاة والسلام- وترجيعه، والأمر بتزيينه بالأصوات، والخلاف في قراءته بالألحان، ورجّح عدم جواز قراءة القرآن بالتطريب والألحان إلا ما كان عليه سلف هذه الأمة كعبدالله بن مسعود وكأبي موسى الأشعري وغيرهما، لكن هل كل من قرأ القرآن يتذكر به، هل كل من قرأ القرآن يتذكر به؟ أو كل من استمع القرآن يتذكر به؟ الجواب لا؛ لأن

الإنسان يدرك هذا من نفسه، تمر علينا الآيات ولا تحرك ساكنًا، تمر السور وقد ينتهي الإنسان من حزبه ما تأثر، وقد ينتقل من سورة إلى سورة وما شعر، من الذي يتذكر بالقرآن؟

إنما يتذكر بالقرآن من قال عنه المولى -جل وعلا-: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الفوائد في أول الكتاب: إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته، اجمع قلبك عند تلاوته، يعني من حصل لجماعة أن صلوا الظهر جماعة، والراوي يقول: جماعة كثر، فصلى بهم الإمام وجهر بالقراءة وأمنوا على قراءته، مثل هذا يتذكر بالقرآن؟ أو جميع من وراءه ممن يتذكر بالقرآن، وشوهد من هو ساجد يرفع أصبعه كذا يتشهد، وفي آخره قال: آمين في السجود، يعني مثل هذا يتلذذ بعبادة؟ والمشتكى إلى الله -جل وعلا-.

هذا واقعنا وسبب ذلك ما ران على القلوب من الذنوب والمكاسب المدخولة والمطاعم المغشوشة، هذا يغطي القلب، كيف تستفيد وأنت في تعاملك مع الله -جل وعلا- في كثير من أحوالك مع تقصير كبير وخلل عظيم؟ يعني يصلي الإنسان ويخرج من صلاته ما استفاد شيئًا، والله -جل وعلا- يقول: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} الصلاة التي تترتب عليها آثارها هي الصلاة التي تُؤدَّى على مراد الله -جل وعلا-، وعلى ضوء ما جاء عنه -عليه الصلاة والسلام- من قوله وفعله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» تجد بعض المسلمين يصلي ويسرق، وقد يشرب الخمر، وقد يكذب، إلى غير ذلك، فما نهته صلاته لا عن الفحشاء ولا عن المنكر.

{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} يصوم الإنسان بالنهار ويزاول المنكرات والجرائم بالليل، إذًا ما ترتبت الآثار على هذه العبادة، وقل مثل هذا في الحج، {فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه} بشرط التقوى لمن اتقى لا إثم عليه، يرجع بدون ذنب، لكن شريطة التقوى، والله المستعان.

يقول ابن القيم في الفوائد: إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطَب به أو من يخاطِبه به، من يخاطبه به من تكلم به من سبحانه منه إليه. يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في ميميته:

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه ... كأنما خاطب الرحمن بالكلم

تخاطب الله -جل وعلا-، ونقرأ القرآن وكأننا نقرأ في جرائد، كأننا ما نقرأ كلام الله -جل وعلا-، تجد المدير والمسؤول إذا جاءه أنظمة أو لوائح جمع الوكلاء، وجمع رؤساء الأقسام، وعكفوا على هذه اللوائح يدرسونه؛ ليعلموا منطوقها ومفهومها، وما يدخل فيها، وما يخرج منها، وماذا يراد بها؟ وإذا أشكل عليهم شيء استفصلوا، ثم تأتي اللوائح التفصيلية لهذا النظام، ويعتنى به هذه العناية، وهذا لأنه مرتبط بالدنيا والوظيفة، لكن الوظيفة العظمى التي لأجلها خُلق الإنسان لا نلتفت إليها، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: {إن في ذلك لذكرى

لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، التأثير يحتاج إلى وجود السبب وانتفاء المانع وقبول المحل، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: {إن في ذلك لذكرى} إشارة إلى ما تقدم من أول السورة سورة ق إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر، يعني من قرأ من أول السورة إلى قوله: {إن في ذلك لذكرى} ولم يتأثر، ولم يدكر، يراجع قلبه، يراجع قلبه. وقوله: {لمن كان له قلب} هذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال -جل وعلا- {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًا} أي حي القلب، وقوله: {أو ألقى السمع}، وننتبه لكلمة أو لماذا لم يأت بالواو أو ألقى السمع أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام، وقوله: {وهو شهيد} أي شاهد القلب حاضر غير غائب. قد يقول قائل: لماذا لم يقل: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وألقى؟ لأنه لا بد من إلقاء القلب لمن يكون له قلب حي ويلقي أيضًا؛ لأنه لو كان له قلب حي وما يلقي السمع، فهل يستفيد؟ ما يستفيد، ولو ألقى السمع وليس له قلب حي لا يستفيد،د لماذا لا يؤتى بواو الجمع؟

أولًا أو تأتي بمعنى الواو، أو تأتي بمعنى الواو، وربما عاقبت الواو إذا إلى آخره في كلام ابن مالك، الأمر الثاني أنها بمعنى الواو طردًا لكن عكسًا قد يقول قائل: إنه يكفيني أن يكون قلبي حي أو يقول قائل مثلاً: إن قلبي يحتاج إلى علاج، فلا داعي أن ألقي السمع، لا بد أن أعالج قلبي قبل أن ألقي السمع، نقول: لا أنت مطالب بالأمرين كل واحد منهما على حدة، ثم بعد ذلك إذا انضم بعضهما إلى بعض تمت الفائدة، قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل، وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر. والله -جل وعلا- يسر القرآن، الله- جل وعلا- يسر القرآن للذكر، يعني للتذكر، فهل يتذكر به كل قارئ؟ {ولقد يسرنا القرآن للذكر} هل يتذكر به كل قارئ ولو كان غافلاً لاهيًا ساهيًا؟

الجواب: لا، ولذا قال الله -جل وعلا-: فهل من مُدَّكر؟ فهل من مدكر أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ هل من محل قابل لا بد من قبول المحل، علق البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه بصيغة الجزم عن مطر وهو الوراق في قوله تعالى: {فهل من مدكر} هل من طالب علم فيعان عليه؟ هل من طالب علم فيعان عليه؟ فلا بد من استحضار هذا عند تلاوة القرآن وفهمه والعمل به وحفظه مما يذكر ويرقق القلب.

ويدخل في الرقائق ما جاء عنه -عليه الصلاة والسلام- من أنه كان يعود المرضى ذكر -رحمه الله تعالى- فصلاً في هديه -صلى الله عليه وسلم- في عيادة المريض، وذكر فيه أنه -عليه الصلاة والسلام- يدعو للمريض، ولا شك أن رؤية المرضى تجعل الإنسان يحاسب نفسه، أنك بدل من هذه القوة التي تتمتع بها تكون في أي لحظة من اللحظات مثل هذا الضعيف العاجز، ذكر فيه أنه -عليه الصلاة والسلام- يدعو للمريض، ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله فيقول: كيف تجدك؟ يجلس عند رأسه متوكلاً على الله -جل وعلا- وقد يضع يده على رأسه ويدعو له، كثير من الناس يأنف من القرب من المريض، وبعض الناس لا يزور المرضى؛ خشية العدوى، بعضهم يقول: المستشفيات موبوءة، وفيها جراثيم، وفيها، ويفوته خير عظيم، والله المستعان، وكان يسأل المريض عما يشتهيه فيقول: هل تشتهي شيئًا، فإن اشتهى شيئًا وعلم أنه لا يضره أمر له به، لكن إن كان يضره لا يأمر به، وكان يمسح بيده اليمنى على المريض ويقول: «اللهم رب الناس، أذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا». وكان يدعو للمريض ويرقيه، ولم يك من هديه -صلى الله عليه وسلم- أن يخص يومًا من الأيام بعيادة المريض ولا وقتًا من الأوقات، بل شرع لأمته عيادة المرضى ليلاً ونهارًا وفي سائر الأوقات.

نعم يوجد الآن من يخصص الخميس مثلاً تجتمع فيه عنده عبادات كثيرة، فتجده يصوم يوم الخميس، ويتصدق، ويعود المرضى، يتبع الجنائز، يصلي عليها، ويزور المقابر إذا لم يصل على الجنازة، المقصود أنه يجتمع عنده في هذا اليوم أمور كثيرة، النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يخصص يومًا لهذه العبادات، نعم جاء تخصيص بعض الأيام بصيامها، لكن تخصيص بعض الأيام بزيارة المقابر أو المرضى لم يكن من عادته -عليه الصلاة والسلام-، ولم يأت عنه ما يدل على ذلك، قد يقول قائل: إن يوم الخميس يوم فراغ، الأيام الأخرى لا يستطيع؛ لأن عنده دوامًا أو دراسة أو تدريسًا لهذا الهدف، لا لأن هذا اليوم يختص بهذه العبادة. نقول: لا يكون ذلك ديدنًا، يخلفه في بعض الأيام، ثم يخرج من المحظور، وفي المسند عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه: «إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خرفة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإذا كان غدوه صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان مساء صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح».

وكم يُحرم الإنسان في تكاسله وفي تثاقله عن عيادة المرضى، والله المستعان، وفي لفظ: «ما من مسلم يعود مسلمًا إلا بعث الله له سبعين ألف ملك يصلون عليه أية ساعة من النهار كانت حتى يمسي، وأي ساعة من الليل حتى يصبح»، فعيادة المرضى مما يرقق القلوب، فهي داخلة في الرقائق.

ثم ذكر –رحمه الله تعالى– فصلاً في هديه –صلى الله عليه وسلم– في الجنائز والصلاة عليها وتوابع ذلك، فأول ذلك تعاهد المريض في مرضه وتذكيره الآخرة، تذكيره الآخرة وأمره بالوصية والتوبة، وأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، لا بد من استغلال مثل هذه الظروف، المريض بحاجة ماسة إلى ما يعينه سواء كان فيما يتعلق بمرضه أو غيره، لو أهدى إليه كلمة طيبة، وبشره، بش في وجهه، وأطمعه في رحمة الله– جل وعلا–، وأملى عليه ما يريده من توجيه، فعلى من يعمل في هذا المجال أن يستغل مثل هذه الظروف، فالمريض مثل الغريق، فالطبيب عليه أن يستغل مثل هذه الظروف، وكذلك من يعود المريض، لكن قبول قول الطبيب بالنسبة للمريض لا تردد فيه؛ لأنه يرى أن حاجته متعلقة بهذا الشخص، فإذا أهدى إليه نصيحة وأسدى إليه توجيهًا، وأمره أن يثق بالله –جل وعلا–، وأن يطمع به في شفائه، ووجَّهه إلى ما ينفعه في دينه، وحسن خاتمته، يكون له منّة. كثير من الناس عنده فرص للدعوة يفوتها، ما يقدر قدر الوظيفة إلا من عاناها، فمثلاً الذي يعطي المواعيد في المستشفيات أو في غيرها، عندك موعد في مستشفى، الموظف الذي على الجهاز يقول: موعدك بعد شهرين، ثم يقول المريض: حاول يا ابن الحلال أنك تقدم، لعلك كذا، ثم يحاول أن يقدمه أسبوعًا يملكه، ثم إذا رأى عليه ملاحظة قال: يا أخي أنت عليك كذا، لو أقبلت على الله –جل وعلا– وتركت هذه المعصية أعانك الله –جل وعلا– وشفاك، ولو وجهه إلى الصيام، إلى القيام، إلى تلاوة القرآن على الوجه يعني هذه لا يعجز عنها أحد، لكنه الحرمان.

كثير من الناس تأتيه الفرصة مواتية، يوسف –عليه السلام– استغل حاجة الرجلين، استغلها في الدعوة وهو في السجن، فعلى كل إنسان أن يستغل مثل هذه الظروف، وكل من المسلمين على ثغر، وهكذا كان دأبه –عليه الصلاة والسلام– استغلال المناسبات في التذكير والتوجيه وهذا المشهد، مشهد الاحتضار والأموات والقبور وما يتعلق بها من أعظم المشاهد تأثيرًا في القلوب، ولذا أُمرنا بزيارة القبور؛ لأنها تذكر الآخرة، يقول الله –جل وعلا– {ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر}، يعني شغلكم ما أنتم فيه من مكاثرة في أمور الدنيا ومباهاة بها حتى زرتم المقابر يعني حتى متم ودفنتم، واستدل بهذه الآية أعرابي لا يقرأ ولا يكتب لما سمعها قال: بعث القوم ورب الكعبة، كيف؟ الزائر لا بد له أن يرجع، معنى حتى زرتم المقابر يعني دفنتم مدة مؤقتة ثم رجعتم، فهذه فيها دليل على البعث، ومنهم من يقول: إن المراد بالزيارة هنا زيارة القبور.

ولا شك أن زيارة القبور لها أثر في ترقيق القلوب، لكن القلوب الحية القريبة، أما بعض القلوب فلا فرق بينه بين أن يذهب، لا فرق عنده بين أن يذهب إلى المقابر أو إلى الملاهي، إذا وجد في الخمسين من يدخن على شفير القبر، وجد من يغتاب، ويكذب في المقبرة، كيف يتعظ مثل هذا؟ لا بد من المراجعة، لا بد من المحاسبة، لا بد من المراقبة، يقول القرطبي في تفسيره: أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله تعالى حتى متم ودفنتم في المقابر، وزيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي، من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، يواظب على مشاهدة المحتضرين.

لكن وصل الحد ببعض الناس أن زاول بعض المعاصي مع الأموات، يعني قديمًا كان النباش ينبش القبر ويسرق الكفن، هذه عادة قديمة سيئة من مئات السنين موجودة، ينبش القبر، ويسرق الكفن، أين القلب؟ وجد ما هو شر من ذلك في قضايا يصعب الحديث عنها، والله المستعان.

يقول -رحمه الله تعالى-: وزيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قِصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسى قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت وانجلت به قساوة قلبه فذاك، يعني هذا قلب قريب إن استفاد من مجرد ذكر الموت، يعني قبل ثلاثين سنة من دون مبالغة إذا مرت الجنازة بين البيوت بعض الناس يجلس أيامًا ما يخرج من البيت، ما يخرج من البيت، يعني نظير ما يسمع عن بعض الصحابة أنه إذا تأثر بالقرآن وبكى مرض، وكان يعاد، يعاد؛ لأن التأثر حقيقي، أثر في البدن، وأثر في القلب.

لكن الآن تسمع القارئ يبكي بكاءً شديدًا في أول الآية، في آخرها الصوت فيه تأثر، في الآية الثانية كأن شيئًا لم يكن، ما نلاحظ هذا عند كثير من القراء؟ لا نحكم على القلوب، لكن هذا ما ظهر لنا، يعني يتأثر في أول الآية ويبكي، ثم في آخرها الصوت فيه شيء من الجروشة، لكن الآية الثانية ما كأنه قرأ القرآن، يستعيد كما كان، كأنه الآن دخل الصلاة، وبعض الناس يبكي في الفاتحة، سمعنا بعض شيوخنا يبكي في الفاتحة في الركعة الثانية، لماذا؛ لأنه سبقه بكاء في السجود واستمر معه. المقصود أننا لا نغالط أنفسنا، علينا أن نراقب بدقة، ونسعى في علاج القلوب.

يقول: فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن الأول مجرد ذكر من غير عيان، من غير معاينة، عثمان- رضي الله تعالى عنه وأرضاه- إذا رأى القبر بكى بكاءً شديدًا، ويقال له: ماذا يبكيك، قبر عادي؟ يعني موت قال: القبر هذا أول الابتلاء والامتحان، إن تجاوزت هذه المرحلة فما بعده خير، وإن لم تتجاوزها فما بعده شر، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير، وفي مشاهدة من احتضر وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول، قال -صلى الله عليه وسلم-: «ليس الخبر كالمعاينة»، رواه ابن عباس، انتهى كلام القرطبي.

لكن ماذا يصنع بقلب لا يؤثر فيه شيء لا قراءة قرآن، ولا زيارة قبور، ولا تذكر موت، ولا رؤية المحتضرين، لا يؤثر فيه شيء ألبتة، يعني في ثلاجة الأموات واحد جاء بزجاجة ببسي ووضعه حتى يبرد، قد يقول قائل: وهذا وقع لنا ولغيرنا من كثرة ما تتردد على القبور صار أثرها في النفس ضعيفًا، أنت تشاهد حفرة تأتيها اليوم وغدًا وبعد غد، تتردد عليها وهي حفرة، لماذا؟ لأنك تزور هذه القبور من غير قلب، ولو أحضرت القلب تأملت ماذا يكون لك في هذه الحفرة، وما مآل جسدك في هذه الحفرة، تأثرت، لكن أبدًا من أجل أنه وضع له برنامجًا وصار يتعامل ببدنه فقط، وضع له أجزاءً من القرآن يقرؤها ولا يصدق أن يفرغ منها، ويضع له برنامجًا يزور المقابر في الأسبوع مرة مثلاً، برنامج روتيني، أو يزور المستشفيات أو غيرها من غير حضور قلب، مثل هذه الأمور جوفاء لا تجدي، نفعها قليل، ولذلك يحصل ما يحصل من بعض المسلمين في المقابر وفي المستشفيات وفي غيرها، هكذا نجد الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في جميع الأبواب يذكر ما ينفع القلب ضمن ما يذكره من الأحكام الفقهية.

فالكتاب مخصص لهدي النبي -عليه الصلاة والسلام- في جميع أبواب الدين، لكنه يذكر الأحكام ليست جافة، إنما هي سهلة لينة، يخاطب فيها القلب قبل البدن، في الصلاة ذكر- رحمه الله تعالى- أنها صلة للعبد بربه، وأنه لا بد فيها من الخشوع الذي يقوي الصلة بالله- جل وعلا- ، وأن تفعل على مراد الله -جل وعلا-.

شيخ الإسلام في حديث الصلوات الخمس، الصلوات الخمس كفارة لما بينهما يقول -رحمه الله تعالى-: الصلاة التي لم يرجع صاحبها منها إلا بعشر أجرها هذه يرجى منها تكفير؟ هذه إن كفرت نفسها بركة، يكفي، ونحن نسمع هذه الأحاديث، ونوسع الرجاء والأمل، ونغفل عن أحاديث أخرى، نعم هذا كلام من لا ينطق عن الهوى، وهو مبلغ عن الله -جل وعلا- الذي لا يخلف الميعاد، لكن مع ذلك أنت عليك تبعات.

ذكر في كتاب الزكاة أسباب انشراح الصدور، أسباب انشراح الصدور، وهذا علاقته بالقلب ذكر في الصيام أنه من أعظم أسباب تحقق التقوى للصائم، وأنه من أعظم ما يعين على مراقبة الله – جل وعلا–، والكلام في مثل هذه الموضوعات كثير جدًّا في الكتاب، ومبثوب فيه، ولو جُرِّد عله ألا يقل عن مجلد، يمكن أنه لا يقل عن مجلد، لو جرد الكلام في هذه المسائل، لكن هذا كلام اقتطفناه يناسب الوقت؛ لأن الوقت، الإخوان عندهم من صلاة الفجر، فلا نريد الإطالة عليهم بهذا نكتفي، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح زاد المعاد

(من قول المؤلف: فصل: وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- صلاة التطوع على راحلته حيث توجهت به، وكان يومئ إيماءً برأسه في ركوعه وسجوده..)

معالي الشيخ الدكتور
عبد الكريم بن عبد الله الخضير
عضو هيئة كبار العلماء
وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

تاريخ المحاضرة:	30 / 10 / 1426هـ	المكان:	

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:
فيقول الحافظ ابن القيم -رحمنا الله تعالى وإياه-:
"فصل: وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- صلاة التطوع على راحلته حيث توجهت به، وكان يومئ إيماءً برأسه في ركوعه وسجوده.."

حيث توجهت به، فعلى هذا قبلته وجهته، قبلته وجهته، حيث توجهت به، هل المراد حيث توجهت به جهته الأصلية أو حتى الجهات التي تطرؤ وإن لم تكن أصلية؟ فهذه مهمة يا إخوان الذين يتنفلون بالسيارات، شخص يمشي بسيارته، يتنفل أثناء ذهابه رجوعه من مكة، راجع من مكة إلى الرياض جهته جهة المشرق الذي هو الرياض، طرأ عليه أن يمر بمحطة مثلاً إلى جهة الجنوب أو إلى جهة الشمال، هل نقول: إن قبلته جهته الأصلية، فإذا دار يمينًا أو شمالاً تغيرت قبلته، أو نقول: إنه مادام سقط عنه وجوب استقبال القبلة فالجهات كلها بالنسبة له سواء؟

نعم يا إخوان، المسألة واقعية أو ما هي واقعية؟ إذا قلنا: قبلته جهته فهو متجه إلى جهة الشرق، لكن طرأ عليه يمين أو شمال يريد تعبئة السيارة بنزينًا أو يتزود من أكل وشرب ونحوه، ما المتجه في هذا؟ لكن وجهته وجهته الرياض، هو قاصد هذه الجهة، كونه يعدل عنها يمينًا أو شمالاً كما لو عدل عن استقبال القبلة يمينًا أو شمالاً؟ لا، هو ما فيه شك انحراف مؤثر عن جهته، انحراف مؤثر، افترض أنه ذاهب لمكة، والجهة ما فيها إشكال، متجه إلى جهة الكعبة، ويصلي في راحلته دار يمينًا أو شمالًا، لا، لما يجيء للرياض قلنا: سقط عنه استقبال القبلة، لكن لما كان متجهًا إلى مكة ما سقط عنه استقبال القبلة، هو متجه إلى القبلة، فإذا انحرف يمينًا للمحطة أو للمطعم أو للمسجد أو شيء..

طالب: ....

وهل يختلف فيما إذا كان ذاهبًا أو كان راجعًا؟ نقول: إذا كان راجعًا الجهات سواء ما فيه استقبال أصلاً، فالجهات كلها سواء، بخلاف ما إذا كان ذاهبًا إلى مكة فهو في الجهة الأصلية المطالَب بها، وما سقط الاستقبال عنه؛ لأنه يستطيعه، فإذا انحرف يمينًا أو شمالاً، فماذا نقول؟

طالب: ....

لا لا، بعض الألفاظ حيثما اتجه وجه ركابه، في الأصل ماشٍ إلى جهة الشرق، ثم طرأ له ما ينحرف عن هذا الأصل، قبلته حيث كان وجه ركابه إلى جهة المشرق، ثم بعد ذلك طرأ له ما يخالفه نفس الشيء، فالجهات كلها بالنسبة له سواء، وعلى هذا هو حر، إن بغى يمينًا، وإن بغى غيره.. بقعة تناسبه، يريد أن يتمشى يسارًا أو غيره صارت المسألة ما لها ضابط، أو يريد أن يترك الدابة ترعى بحريتها دون توجيه في مكان ربيع، ولا يقدر أن ينزل ويتركها، فتضل، تضيع.

طالب: ....

لا لا لا، هو معفى من القبلة، هو معفى جهته إلى غير القبلة حيثما توجه، نحن بين أمرين؛ إما أن نقول: هذه قبلته، ونجعلها في الاشتراط كاشتراط القبلة في الصلاة، فلا يجوز أن نحيد عنها، وإذا قلنا: هو في الأصل معفى وغير قادر على استقبال القبلة، فالجهات بالنسبة له سواء استقبال الشرق ما هو مقصد شرعي؛ لأن الجهات كلها بالنسبة له سواء، وهذا الذي يظهر أن الجهات كلها بالنسبة له سواء، وأصل الاشتراط اشتراط استقبال القبلة سقط عنه.

"وسجوده أخفض من ركوعه، وروى أحمد وأبو داود عنه من حديث أنس -رضي الله عنه- أنه كان يستقبل بناقته القبلة عند تكبيرة الافتتاح ثم يصلي سائر الصلاة حيث توجهت به، وفي هذا الحديث نظر، وسائر من وصف صلاته -صلى الله عليه وسلم- على راحلته أطلقوا أنه كان يصلي عليها قِبَل أي جهة توجهت به، ولم يستثنوا من ذلك تكبيرة الإحرام ولا غيرها، كعامر بن ربيعة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله -رضي الله عنهم-، وأحاديثهم أصح من حديث أنس هذا، والله أعلم.

وصلى على الراحلة وعلى الحمار إن صح عنه، وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-، وصلى الفرض بهم على الرواحل.."

لماذا شكَّك؟! ماذا قال المعلِّق؟

طالب: أخرجه مسلم من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن سعيد بن يسار عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على حمار وهو موجه إلى خيبر. قال الدارقطني وغيره: هذا غلط من عمر بن يحيى المازني ..

عمرو، عمرو..

طالب: هذا غلط من عمرو بن يحيى المازني، قالوا: وإنما المعروف في صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- على راحلة أو على البعير، والصواب أن الصلاة على الحمار من فعل أنس كما ذكره مسلم.

أعله مسلم، ما ذكره.

"وصلى الفرض بهم على الرواحل لأجل المطر والطين إن صح الخبر.."

على كل حال الصلاة على الحمار على القول المرجح أنه طاهر، ما كانوا يتقون عرقه ولا لعابه، الصلاة عليه صحيحة.

طالب: ....

لا لا، ما يشترط هذه مشقة عظيمة، تصور الإنسان في السيارة وجاءٍ من مكة إلى الرياض ويقال له در للخلف ثم كبر ثم ارجع.. لا لا، فيها مشقة.

"وصلى الفرض بهم على الرواحل لأجل المطر والطين إن صح الخبر بذلك، وقد رواه أحمد والترمذي والنسائي أنه -عليه الصلاة والسلام- انتهى إلى مضيق هو وأصحابه وهو على

راحلته، والسماء من فوقهم، والبلة من أسفل منهم، فحضرت الصلاة فأمر المؤذن فأذن وأقام، ثم تقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على راحلته، فصلى بهم يومئ إيماءً، فجعل السجود أخفض من الركوع، قال الترمذي: حديث غريب تفرد به عمر بن الرماح، وثبت ذلك عن أنس من فعله.

فصل: وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر، ثم نزل فجمع بينهما، فإن زالت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب، وكان إذا أعجله السير أخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء في وقت العشاء، وقد روي عنه في غزوة تبوك أنه كان إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، وإن ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر فيصليهما جميعًا، وكذلك في المغرب والعشاء لكن اختُلف في هذا الحديث فمن مصحح له ومن محسن ومن قادح فيه وجعله موضوعًا كالحاكم وإسناده على شرط.."

يعني بعد أن خرجه حكم عليه بأنه موضوع، وعلى كل حال الجمع تقديمًا وتأخيرًا هو قول جماهير أهل العلم، وخالف في جمع التقديم الأوزاعي، وفي أصل الجمع الحقيقي الحنفية، وقالوا: إن ما جاء من جمعه -عليه الصلاة والسلام- محمول على الجمع الصوري، بمعنى أنه يؤخر الصلاة الأولى إلى آخر وقتها، بحيث إنه إذا فرغ منها حان وقت الثانية فيشرع فيها من غير فاصل، وتكون كل صلاة في وقتها، وهما مجموعتان في الظاهر، ولكن لا يمكن أن يأتي الشرع بمثل هذا التكليف الذي فيه من المشقة على خصوص الناس يعني على خواص الناس يشق عليهم الذين يعرفون الأوقات يشق عليهم تحين الأواخر والأوائل، فكيف بعامة الناس الذين لا يعرفون الأوقات؟

"وإسناده على شرط الصحيح، لكن رُمي بعلة عجيبة قال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن بالويه قال: حدثنا موسى بن هارون قال: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، ويصليهما جميعًا، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب.

قال الحاكم: هذا الحديث رواته أئمة ثقات، وهو شاذ الإسناد والمتن، ثم لا نعرف له علة نعله بها، فلو كان الحديث عن الليث عن أبي الزبير عن أبي الطفيل لعللنا به الحديث، ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل لعللنا به، فلما لم نجد له العلتين خرج عن أن يكون معلولاً، ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل رواية، ولا وجدنا هذا المتن بهذه

السياقة عن أحد من أصحاب أبي الطفيل، ولا عن أحد ممن روى عن معاذ بن جبل غير أبي الطفيل فقلنا: الحديث شاذ. وقد حدثوا عن أبي العباس الثقفي قال: كان قتيبة بن سعيد يقول لنا على هذا الحديث علامة أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وأبي بكر بن أبي شيبة وأبي خيثمة، حتى عد قتيبة سبعة من أئمة الحديث كتبوا عنه هذا الحديث، وأئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجبًا من إسناده ومتنه، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علة، ثم قال: فنظرنا فإذا الحديث موضوع وقتيبة ثقة مأمون، ثم ذكر بإسناده إلى البخاري قال: قلت لقتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل؟

قال: كتبته مع خالد بن القاسم أبي الهيثم المدائني، قال البخاري: وكان خالد المدائني يدخل الأحاديث على الشيوخ.

قلت: وحكمه بالوضع على هذا الحديث غير مسلَّم، فإن أبا داود رواه عن يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الرملي قال: حدثنا المفضل بن فضالة عن الليث بن سعد عن هشام بن سعد عن أبي الزبير عن أبي الطفيل عن معاذ فذكره، فهذا المفضل قد تابع قتيبة، وإن كان قتيبة أجل من المفضل وأحفظ، لكن زال تفرد قتيبة به، ثم إن قتيبة صرح بالسماع فقال: حدثنا ولم يعنعن، فكيف يقدح في سماعه مع أنه بالمكان الذي جعله الله به من الأمانة والحفظ والثقة والعدالة؟ وقد روى إسحاق بن راهويه: حدثنا شبابة قال: حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا كان في سفر فزالت الشمس صلى الظهر والعصر ثم ارتحل. وهذا إسناد كما ترى، وشبابة هو شبابة بن سوار الثقة المتفق على الاحتجاج بحديثه، وقد روى له مسلم في صحيحه عن الليث بن سعد بهذا الإسناد على شرط الشيخين، وأقل درجاته أن يكون مقويًا لحديث معاذ، وأصله في الصحيحين، لكن ليس فيه جمع التقديم.

ثم قال أبو داود: وروى هشام عن عروة عن حسين.."

أما جمع التأخير فلم يخالف فيه كل من يرى الجمع؛ لأن أحاديثه لا إشكال فيها، الإشكال فيما ورد في جمع التقديم، ولذا يخالف الأوزاعي في جوازه ومشروعيته، والحنفية معروف رأيهم أنهم لا يرون الجمع مطلقًا، ما جاء في الحج من التقديم أو التأخير هذا نسك، حتى الحنفية يقولون به النسك.

"ثم قال أبو داود: وروى هشام عن عروة عن حسين بن عبد الله عن كريب عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نحو حديث المفضل، يعني حديث معاذ في الجمع والتقديم، ولفظه عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن كريب عن ابن عباس أنه قال: ألا

أخبركم عن صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- في السفر؟ كان إذا زالت الشمس وهو في منزله جمع بين الظهر والعصر في الزوال، وإذا سافر -قال: وأحسبه قال- في المغرب والعشاء مثل ذلك، ورواه الشافعي من حديث ابن أبي يحيى عن حسين ومن حديث ابن عجلان بلاغًا عن حسين.

قال البيهقي: هكذا رواه الأكابر هشام بن عروة وغيره عن حسين بن عبد الله ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن حسين عن عكرمة وعن كريب كلاهما عن ابن عباس، ورواه أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس قال: ولا أعلمه إلا مرفوعًا. وقال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا إسماعيل بن أبي إدريس قال: حدثني أخي عن سليمان بن مالك عن هشام بن عروة عن كريب عن ابن عباس قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا جد به السير فراح قبل أن تزيغ الشمس ركب فسار ثم نزل فجمع بين الظهر والعصر، وإذا لم يرح حتى تزيغ الشمس جمع بين الظهر والعصر ثم ركب، وإذا أراد أن يركب ودخلت صلاة المغرب جمع بين المغرب وبين صلاة العشاء."

يروح، المراد بالرواح هنا الذهاب، وإلا فالأصل أن الرواح يقابله الغدو، ويكون هذا في أول النهار وهذا بعد الزوال، لكن المراد هنا قبل الزوال، فهو يرادف الذهاب، وجاء في الحديث الصحيح: «من راح في الساعة الأولى» الرواح هنا قبل الزوال قطعًا.

"قال أبو العباس بن سريج.."

سريج سريج.

"قال أبو العباس بن سريج: روى يحيى بن عبد الحميد عن أبي خالد الأحمر عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا لم يرتحل حتى تزيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا، فإذا لم تزغ أخرها حتى يجمع بينهما في وقت العصر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويدل على جمع التقديم جمعه بعرفة بين الظهر والعصر لمصلحة الوقوف ليتصل وقت الدعاء، ولا يقطعه بالنزول لصلاة العصر مع إمكان ذلك بلا مشقة، فالجمع كذلك لأجل المشقة والحاجة أولى، قال الشافعي: وكان أرفق به يوم عرفة تقديم العصر؛ لأن يتصل له الدعاء، فلا يقطعه بصلاة العصر وأرفق بالمزدلفة أن يتصل له المسير ولا يقطعه بالنزول للمغرب؛ لما في ذلك من التضييق على الناس، والله أعلم.

فصل: ولم يكن من هديه -صلى الله عليه وسلم- الجمع راكبًا في سفره، كما يفعله كثير من الناس، ولا الجمع حال نزوله أيضًا، وإنما كان يجمع.."

راكبًا، الجمع راكبًا الصلاة على الدابة خاصة بالنافلة، ولم يكن يفعل -عليه الصلاة والسلام- ذلك في الفريضة كان يصلي في النافلة ويوتر على الراحلة، لكنه لا يفعل ذلك بالمكتوبة، فلا مجال للجمع هنا.

" فصل: ولم يكن من هديه -صلى الله عليه وسلم- الجمع راكبًا في سفره، كما يفعله كثير من الناس، ولا الجمع حال نزوله أيضًا، وإنما كان يجمع إذا جد به السير، وإذا سار عقيب الصلاة، كما ذكرنا في قصة تبوك، وأما جمعه وهو نازل غير مسافر، فلم ينقل ذلك عنه إلا بعرفة؛ لأجل اتصال الوقوف، كما قال الشافعي -رحمه الله- وشيخنا، ولهذا خصه أبو حنيفة بعرفة، وجعله من تمام النسك، ولا تأثير للسفر عنده فيه. وأحمد، ومالك، والشافعي، جعلوا سببه السفر، ثم اختلفوا، فجعل الشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه التأثير للسفر الطويل، ولم يجوّزاه لأهل مكة، وجوّز مالك وأحمد في الرواية الأخرى عنه لأهل مكة الجمع والقصر بعرفة، واختارها شيخنا وأبو الخطاب في عباداته، ثم طرَّد شيخنا هذا.."

طرَد طرَد..

"ثم طرَد شيخنا هذا، وجعله أصلاً في جواز القصر والجمع في طويل السفر وقصيره، كما هو مذهب كثير من السلف.."

بناءً على إطلاق النصوص، النصوص مطلقة ليس فيها تقييد بسفر معين ولا بمدة معينة، هذا رأي شيخ الإسلام، والجمهور على أنه لا بد من أن تكون المسافة محددة، والمدة معلومة، هذا قول عامة أهل العلم، الجمهور على هذا، ويختلفون في المدة التي تعتبر في حق المسافر، وأكثر القائلين بالتحديد يرون الأربعة برد، ثمانين كيلو تقريبًا، والإمام البخاري يوم واحد، يعني يعادل أربعين كيلو، وأبو حنيفة خمسة عشر يومًا، أقوال كثيرة لأهل العلم، ولا شك أن النصوص الواردة في الباب قد لا تنهض للتحديد لا في المسافة ولا في المدة، نعم من أقوال الصحابة في المسافة بين مكة وجدة، ومكة والطائف، مكة وعسفان، يعني قريبة من الثمانين كيلو، وعلى كل حال القول بالتحديد هو قول الجمهور، وهو أضبط للصلاة، وأحوط للعبادة.

"وجعله مالك وأبو الخطاب مخصوصًا بأهل مكة ولم يحد -صلى الله عليه وسلم- لأمته مسافة محدودة للقصر والفطر، بل أطلق لهم ذلك في مطلق السفر والضرب في الأرض، كما أطلق لهم التيمم في كل سفر، وأما ما يُروى عنه من التحديد باليوم، أو اليومين، أو الثلاثة، فلم يصح عنه منها شيء ألبتة، والله أعلم.

فصل: في هديه -صلى الله عليه وسلم- في قراءة القرآن، واستماعه، وخشوعه..."

يكفي يكفي، طويل هذا.

طالب: ....

ما فيه إشكال، الجمع والإنسان نازل غير جاد به السير الصواب جوازه؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- ثبت عنه أنه في تبوك يخرج من خبائه فيصلي لهم جمعًا ويرجع، وبإمكانه أن يدرك الناس في.. يعني يستمر العذر إلى وقت الثانية يعني يصل البلد، يدخل البلد والناس ما بعد صلوا الصلاة الثانية، إذا خرج.

طالب: ....

لا بد أن يتحقق الوصف الذي عُلِّق عليه الترخص وهو السفر والسفر مأخوذ من الإسفار والبروز الإسفار والبروز، ولا يتحقق الوصف إلا إذا فارق البلد؛ لأن المطار وإن كان منفصلاً عن البلد إلا أنه من جملته، ولذلك عامة الناس يقولون: وصلنا الرياض، غادرنا الرياض، وهم في المطار، فالمطار من الرياض، وهكذا المطارات المضافة إلى البلدان هي جزء منها، المقصود أنها ما تنسب إلى الرياض، خرج، برز من الرياض وخرج، ومن السفور المرأة إذا أبرزت شيئًا من بدنها يقال: سافرة، فالسفر من السفور والبروز، فإذا خرج وغادر البلد يسمى مسافرًا، أما ما قبل ذلك فحكمه حكم الحضر.

طالب: ....

منهم من يشترط أن يكون العذر مستمرًا إلى وقت الثانية، ومنهم من لا يشترط ذلك، وعلى هذا فيجوز له أن يجمع في أطراف البلد قبل أن يدخل ولم يتحقق فيه وصف الحضر، وحينئذ إذا دخل البلد إن سمع المؤذن عند من يقول بوجوب الإجابة عند سماع صوت المؤذن هذا من وجه، الوجه الثاني أنه قال: إذا صليتما في رحالكما، ثم أتيتما وقد أقيمت الصلاة فصليا، فإنها لكما نافلة. فهي من هذا الباب تكون نافلة.

طالب: ....

ستين ما يكفي، ثمانين أقل شيء.

طالب: ....

لا لا، ما هو سفر هذا، المسألة لابد أن تنضبط، لا بد أن تنضبط المسألة، يعني القول الثاني الذي فيه القول بإطلاق السفر ترتب عليه تضييع العبادات، تضييع العبادات، يجلس سنتين ثلاث خمس سنوات ما يشهدون جمعًا ولا جماعة، ولا يصومون، ولا كذا، مثل هذا الشيخ ابن باز -رحمه الله- يقول: كنت أقول بقول شيخ الإسلام، ثم رأيت أن الأحوط للعبادة والأحفظ لها القول بقول الجمهور فاعتمدته، فصار يفتي به -رحمه الله-.

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح زاد المعاد

(من قول المؤلف: فصل في هديه -صلى الله عليه وسلم- في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه عند قراءته وتحسين صوته به وتوابع ذلك)

معالي الشيخ الدكتور
عبد الكريم بن عبد الله الخضير
عضو هيئة كبار العلماء
وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

تاريخ المحاضرة:	14 / 11 / 1426هـ	المكان:	

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول المؤلف -رحمنا الله تعالى وإياه-:

"فصل في هديه -صلى الله عليه وسلم- في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه عند قراءته واستماعه وتحسين صوته به، وتوابع ذلك.

كان له -صلى الله عليه وسلم- حزب يقرؤه ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد الرحمن، ويمد الرحيم، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وربما كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، وكان تعوذه قبل القراءة، وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع -صلى الله عليه وسلم- لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

وكان يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ومتوضئًا ومحدثًا، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة.

وكان -صلى الله عليه وسلم- يتغنى به ويرجع صوته به أحيانًا كما رجع يوم الفتح بقراءته {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً} [سورة الفتح:1]."

كان يقرأ القرآن على كل حال ما لم يشعر الحال بالاستخفاف؛ لأن بعض الجلسات وبعض التصرفات فيها شيء من الاستخفاف، فإذا لم يشعر بالاستخفاف يقرأ {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [سورة آل عمران:191]، وهو أفضل الأذكار، وهذه صفة قراءته- عليه الصلاة والسلام- مرتلة مع التدبر مع التأثر بالقرآن؛ لأنه يقرأ كلام الله كأنه يخاطب الرحمن.

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه كأنما خاطب الرحمن بالكلم

وعلى طالب العلم أن يُعنى بهذا أشد العناية، يكون له ورد يومي لا يخل به سفرًا ولا حضرًا، وأن يكون على هذه الطريقة؛ لأنه إذا تعود على غيره صعب عليه أن يرجع، يصعب عليه أن يرجع، في الأمور المحسوسة إذا تعود السرعة في السيارة يصعب عليه أن يهدئ، ويتضايق من أي شخص يمشي أمامه غير مسرع، والذي تعود الهذ في القراءة ما يستطيع أن يقرأ، وكم حصل لمن تعوَّد هذه السرعة أنه يسجد في غير موضع السجود، ويتجاوز السجود، ولا ينتبه إلا بعد ورقتين أو ثلاث، والقلوب -كما تعلمون في هذه الأزمان- انتابها ما انتابها، وغطى عليها من الران ما الله به عليم، هذا يحصل على كافة المستويات حتى من بعض طلاب العلم، والله المستعان.

يعني يُتصور أن شخص يبدأ بيونس ولا يشعر إلا وهو بيوسف؟ مرت عليه هود وما يدري، يعني من منا من تحرك فيه شعرة عندما يقرأ الآية {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} [سورة المدثر:8]؟ نحس؟! والله ما نشعر بشيء يا إخوان، نسأل الله -جل وعلا- أن يحيي القلوب، وأن يمنع الوسائل التي صارت سببًا على تغطية هذه القلوب، يعني التخليط في المطعم أمر مشكل جدًّا، وعموم الناس الآن لا يبحثون إلا عن المال بأي وسيلة كانت، ولا ينظرون في السبب أو الوسيلة التي حصل بها هذا المال والأكل، والموظف والتاجر على حد سواء، على حد سواء، الناس كلهم أو جلهم لا يحتاطون في أمر المطعم والمشرب، وهذا السبب جعل المسلمين لهذا الحد يدعون فلا يستجاب لهم، ويقرؤون ولا ينتفعون.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث قلب المسلم من العلم واليقين والإيمان ما لا يدركه أحد إلا من يفعله، ولذلك نقرأ القرآن أو نقرأ جرائد والله أمر واحد، وإذا أردت أن تعتبر فاعتبر بمن يقرأ ويبكي، من يقرأ ويبكي هل هذا خشوع؟ لا ندخل في قلوب، ولا في نيات، لكن هل هذا خشوع، يبكي في أول الآية وفي آخر الآية يتعتع، وفي الآية الثانية كأن شيئًا ما حدث، هذا خشوع؟! خشوع السلف إذا بكى الليلة بكرة يعاد، مريض، هذا التأثر الحقيقي، أما تتأثر عيونك تدمع أنت خاشع ولا بأس، وزين وأفضل من عدمه، لكن يبقى أن الخشوع الحقيقي ما هو موجود، يعني الآية الثانية كأنه شيئًا ما حدث. ووقعت قصة- أظن ذكرتها لكم- أمامي بالعشر الأواخر في صلاة في الوتر في القنوت يبكي بكاءً شديدًا، ولما سلم ناقش صاحبه عند الثلاجة التي يحفظ بها الشاي، وكادا أن يتضاربا، وقد أزعج الناس ببكائه الشديد.

يا إخوان القلوب تحتاج إلى مراجعة، تحتاج إلى معاودة، هذا المرض الحقيقي، الإنسان إذا أصيب بزكام أو بأدنى مرض حسي فزع إلى الأطباء، والقلوب ما نسعى أدنى سعي لإصلاحها، هذه مشكلة، يعني الإنسان قد يُمسخ وهو ما يدري؛ لأن المسخ المعنوي أعظم من المسخ الحسي كما قرر أهل العلم، إذا مسخ القلب خلاص انتهى، والله المستعان.

"**وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه آ آ آ ثلاث مرات، ذكره البخاري، وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قول..**"

يعني في قراءة سورة الفتح.

"**وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وقوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»."**

فيه استشكال يستشكله كثير من الإخوان وطلاب العلم، وهو أن الإنسان قد يسمع السورةِ من شخص فلا يتأثَّر، كأنه ما قرأ قرآنًا، كأنه ينشد قصيدة، ويسمع السورة من شخص آخر فيتأثَّر، فهل تأثر هذا الشخص بالقرآن أو بالصوت؟

طالب: ....

يعني التأثر بالقرآن أو بالصوت، أو بالقرآن المؤدَّى بهذا الصوت الذي أمرنا بتحسينه وتزيينه؟

طالب: ....

لولا أن الصوت له أثر في النفس ولا يؤثر في كون الإنسان تأثر بالقرآن لما أمرنا بتزيين القرآن بالصوت والتغني به.

"**وقوله «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبيٍّ حسن الصوت».**"

يعني ما ستمع.

"**«يتغنى بالقرآن» علمت أن هذا الترجيع منه -صلى الله عليه وسلم- كان اختيارًا لا اضطرارًا لهزة الناقة له، فإن هذا لو كان لهز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختيارًا ليؤتسى به وهو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته ثم يقول: كان يرجع في قراءته فنسب الترجيع إلى فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعًا.**"

ولا استمر في القراءة كلها وفي الحروف كلها ما هو في حروف دون حروف لو كان السبب هز الناقة.

"**وقد استمع..**"

طالب: ....

الترجيع ترديد بعض الحروف، الثابت ترجيع الهمزة، والترجيع في الأذان أيضًا معروف.

"**وقد استمع ليلةً لقراءةِ أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- فلما أخبره بذلك قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرًا. أي حسنته وزينته بصوتي تزيينًا. وروى أبو داود في سننه عن عبد الجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة فسمعته يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع.**

قلت: لا بد من كشف هذه المسألة، وذكر اختلاف الناس فيها، واحتجاج كل فريق وما لهم وعليهم في احتجاجهم، وذكر الصواب في ذلك بحول الله تبارك وتعالى ومعونته.

فقالت طائفة: تكره قراءة الألحان، وممن نص على ذلك أحمد ومالك وغيرهما، فقال أحمد في رواية علي..."

القراءة بالألحان والتطريب الممنوع هي التي تُخرِج القرآن عن مسماه بزيادة بعض الحروف الناشئة عن بعض المدود هذه ألحان، أو قراءة القرآن على طريقة أهل الفسق في أغانيهم

ومجونهم هذه لا تجوز بحال، أما تحسين الصوت والمدود التي جاءت بها الرواية عن النبي- عليه الصلاة والسلام- فهذه ليست من التطريب الممنوع.

"فقال أحمد في رواية علي بن سعيد في قراءة الألحان: ما تعجبني وهو مُحدَث. وقال في رواية المروذي: القراءة بالألحان بدعة لا تسمع. وقال في رواية عبد الرحمن المتطبب: قراءة الألحان بدعة. وقال في رواية ابنه عبد الله ويوسف بن موسى ويعقوب بن بختان والأثرم وإبراهيم بن الحارث: القراءة بالألحان لا تعجبني إلا أن يكون ذلك حزنًا فيقرأ بحزن مثل صوت أبي موسى. وقال في رواية صالح: «زينوا القرآن بأصواتكم» معناه أن يحسنه. وقال في رواية المروذي: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت أن يتغنى بالقرآن»، وفي رواية قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» فقال: كان ابن عيينة يقول: يستغني به. وقال الشافعي: يرفع صوته.."

يفسر التغني بالاستغناء، يستغني به عن غيره، وهذا يقلب المعنى، هذا يقلب المعنى.

"وقال الشافعي: يرفع صوته. وذكر له حديث معاوية بن قرة في قصة قراءة سورة الفتح والترجيع فيها، فأنكر أبو عبد الله أن يكون على معنى الألحان، وأنكر الأحاديث التي يحتج بها في الرخصة في الألحان، وروى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال: لا تعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنون به؛ ليأخذوا عليه الدراهم. وممن رويت عنه الكراهة أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين وإبراهيم النخعي. وقال عبد الله بن يزيد العكبري: سمعت رجلاً يسأل أحمد: ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال: ما اسمك؟ قال: محمد، قال: أيسرك أن يقال لك: يا موحمد ممدودًا. قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغة في الكراهة، وقال الحسن بن عبد العزيز الجروي: أوصى إلي رجل بوصية وكان فيما خلف جارية تقرأ بالألحان وكانت أكثر تركته أو عامتها، فسألت أحمد بن حنبل والحارث بن مسكين وأبا عبيد: كيف أبيعها؟ فقالوا: بعها ساذجة.."

من غير هذا الوصف، تباع على أنها لا تُحسِن هذا الأمر ولا تتقنه.

"فأخبرتهم بما في بيعها من النقصان فقالوا: بعها ساذجة. قال القاضي: وإنما قالوا ذلك؛ لأن سماع ذلك منها مكروه، فلا يجوز أن يعاوَض عليه كالغناء.

قال ابن بطال: وقالت طائفة التغني بالقرآن هو تحسين الصوت به والترجيع بقراءته، قال: والتغني بما شاء من الأصوات واللحون هو قول ابن المبارك والنضر بن شميل قال: وممن أجاز الألحان في القرآن ذكر الطبري عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه كان يقول لأبي موسى: ذكِّرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن، وقال: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل. وكان عقبة بن عامر من أحسن الناس صوتًا بالقرآن فقال له عمر:

اعرض عليَّ سورة كذا، فعرض عليه فبكى عمر وقال: ما كنت أظن أنها نزلت. قال: وأجازه ابن عباس وابن مسعود وروي عن عطاء بن أبي رباح قال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد.."

طالب: ....

القرآن قد تسمعه من شخص كأنك أول ما سمعته مثل ما قرأ أبو بكر -رضي الله عنه- في يوم الوفاة {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر:30] قال عمر: ما ظننت أنها نزلت وهو رددها مرارًا وكررها، لكن الشيء في وقته وفي مناسبته ولتأثيره البالغ في القلب كأنه أول مرة يسمع بهذه الطريقة.

هذا سائل يقول: ذكر النووي في كتاب الأذكار حال السلف في قراءة القرآن وقال: جاء عن عثمان -رضي الله عنه- أنه يختم القرآن في ركعة، وبعضهم قال: يختم القرآن ثمان مرات أربعًا في النهار وأربعًا في الليل، فهل يصح ذلك؟

أما هذا فموجود ومعروف من طريقة السلف، موجود وجود كثرة في التابعين، في الصحابة يعرف عن عثمان -رضي الله عنه-، وأما في التابعين فكثر فيهم من يختم القرآن في ليلة، ومثل هذا ما يُظن به أنه ترتيل، وإن كان الترتيل إذا قلنا: إن القرآن يمكن أن يرتل الجزء بثلث ساعة فالقرآن يحتاج إلى عشر ساعات، وإذا قلنا: إن الجزء يمكن أن يقرأ بربع ساعة، فيختم القرآن بسبع ساعات ونصف، وهناك من يقرأ الخمسة في ساعة، وحينئذ يحتاج إلى ست ساعات، وهذا مجرَّب، لكن يبقى أنه ليس على الوجه المأمور به، قد يوجد بعض الناس ممن ذل لسانه بالقرآن من يسرع ويتأثر ويبكي ويتدبر وهو على هذه الحال، لكن هذه مرحلة تحتاج إلى مران طويل.

على كل حال التدبر أفضل عند الجمهور، يذكرون عن الشافعي أن السرعة أفضل لكسب أجر الحروف، معروف الختمة فيها ثلاثة ملايين حسنة، كونك تختم كل يوم وتكسب ثلاثة ملايين عنده أفضل من أن تقرأ القرآن في سبع، وفي السبع تكسب هذه الملايين الثلاثة، هذا عند الشافعي، وأما الجمهور فالقراءة على الوجه المأمور به ولو لم تقرأ إلا في شهر أفضل، يذكرون في كتبهم ويقرون، يعني الحافظ ابن كثير والنووي والقرطبي كلهم ذكروا عن ابن الكاتب الصوفي أنه كان يقرأ القرآن يختم أربع مرات بالنهار وأربعًا بالليل، لكن هذا ما يتصور. ذكر القسطلاني أن فلانًا يروي عنه بالإسناد أنه قرأ القرآن في أسبوع، ما معنى أسبوع؟

سبعة أشواط؛ لأنه قال، وفي رواية في شوط، كل هذا ما يتصوَّر أبدًا، ولا الإمرار على القلب، ولا مجرد التفكر ما يكفي هذا، هذا إلى العبث أقرب، فعلى الإنسان أن يسدد ويقارب، لا يهجر القرآن، ولا يعمل بهذه الطريقة، فإذا قرأ القرآن في سبع، وهذا لا يشق على أحد، لا عامل ولا عالم ولا متعلم، يجلس بعد صلاة الصبح إلى أن ترتفع الشمس يقرأ القرآن في سبع، والنبي -عليه الصلاة والسلام- يقول لعبد بن عمرو: «اقرأ القرآن في سبع ولا تزد».

مما يحتج به في قراءة الهذ أجر الحروف، وأنه كلما كثرت القراءة عظم الأجر، وكل حرف فيه عشر حسنات، فمثل هذا يعني الصورة التي يقع فيها الخلاف أن شخصًا يجلس ساعة في المسجد يقول: الأفضل أقرأ جزأين بترتيل وتدبر أو أقرأ خمسة لأحصل على مائتي ألف حسنة؛ لأن الجزء فيه مائة ألف، أقرأ جزأين مائتي ألف أو أقرأ خمسة خمسمائة ألف، أيهما أفضل؟

هذا محل الخلاف، ما هو محل الخلاف أن يقرأ جزأين هذًّا أو جزأين ترتيلًا، لا، هذا ما يختلف فيه أحد.

يستدل بعض الشافعية كالحافظ ابن حجر وغيره على قراءة الهذ أن نبي الله داود -عليه السلام- يقرأ القرآن كاملاً وفرسه تسرج، لكن هل قرآنه مثل قرآننا؟ هو الذي أُنزل عليه؟

طالب: ....

الزبور، الزبور أنزل عليه، وهل هو في حجم القرآن؟ عندهم الأمر لا يختلف لماذا؟ لأن كلام الله واحد ما يتغير، كلام الله لا يتغير، عندهم القرآن هو الزبور، التوراة هو الإنجيل، الذي يتغير هو اللغات، يعني إذا قرئ بالعربية صار قرآنًا، قرئ بالسريانية صار إنجيل، بالعبرانية صار توراة، هذا الكلام لو تُدُبِّر باطل من كل وجه، باطل من كل وجه، ورقة بن نوفل لما قرأ عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- سورة اقرأ قال: هذه أنا أعرفها؟ هو يترجم الإنجيل بالعربية وينقله إلى اللغات كلها، ما قال: هذه السورة عندي من قبل، ما قال إن السورة هذه عندي من قبل، اسمع من ابن أخيك، سمع سورة اقرأ شيء جديد عليه.

وعلى كل حال ما هو هذا وقت الرد على هذا القول، لكن هم يفرون من إثبات كون القرآن متجدد الآحاد يتكلم الله -جل وعلا- متى شاء كيف شاء بحرف وصوت، هم يمنعون مثل هذا، يصفون بصفة الكلام، لكن على الهيئة التي يذكرونها، وأن كلام الله واحد، تكلم في الأزل ولا يتكلم بعد، فهذا الذي جعلهم يستدلون بأن داود -عليه السلام- يقرأ القرآن والفرس تسرج، عنده قرآننا داود؟! ما عنده قرآننا إلا على رأيهم هم كلام الله لا يتغير، لكن الذي عليه أهل الحق أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة وأئمتها من الصحابة فمن بعدهم أن كلام الله وإن كان قديم النوع إلا أنه متجدد الآحاد، يتكلم متى شاء كيف شاء.

طالب: ....

هو كُتبت التوراة، كتبها الله -جل وعلا- بيده، وأما المكالمة الشفوية هذه الله أعلم بها، ما يدرى ما الذي دار بينهما، فإن كان مما سطر في التوراة يعد منها، وإن كان خارجًا عنها لا يعد منها، والله أعلم.

"قال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان، وذكر الطحاوي.."

الإمام -رحمه الله- سئل فقال: اتبع الأنفع لقلبك؛ لأن بعض الناس تصلي وراءه ما كأنك تصلي، سبحان الله، وبعض الناس يؤثر فيك، فمثل هذا الأنفع للقلب ما لم يُتهم الشخص بأنه لا يصلي إلا مع من يتبع جماعته، فإذا ارتفعت منزلته عن هذه، أو يتهم بأن بينه وبين الإمام شحناء أو بغضاء أو شيئًا من هذا، مثل هذا إن ارتفعت منزلته عن هذه التهمة يتبع من يشاء.

"**وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابُه..**"

وأصحابِه.

"**وأصحابِه أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان، وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت أبي والشافعي ويوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان، وهذا اختيار ابن جرير الطبري، قال المجوِّزون...**"

المراد بالألحان التغني وتزيين الصوت بالقرآن، فلا يكون ثَم خلاف، إن شاء الله تعالى، أما القراءات المحدثة بالتمطيط ما يقول بها أحد ممن يُعتد بقوله.

"**قال المجوزون واللفظ لابن جرير: الدليل على أن معنى الحديث تحسين الصوت والغناء المعقول الذي هو تحزين القارئ سامع قراءته كما أن الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذي يطرب سامعه ما روى سفيان عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الترنم بالقرآن»، ومعقول عند ذوي الحجا أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم وطرب به، وروي في هذا الحديث «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» قال الطبري: وهذا الحديث من أبين البيان أن ذلك كما قلنا، قال: ولو كان كما قال ابن عيينة يعني يستغني به عن غيره لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى، والمعروف في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع.**"

التغني تفعل من المصدر الذي هو الغناء.

"**قال الشاعر:**

تغــن بالشــعر إمــا كنــت قائلــه إن الغنــاء لهــذا الشــعر مضــمار

قال: وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فاشٍ في كلام العرب فلم نعلم أحدًا قال به من أهل العلم بكلام العرب، وأما احتجاجه لتصحيح قوله بقول الأعشى:

وكنــت امــرءًا زمنــا بــالعراق عفيــف المنــاخ طويــل الــتغن

وزعم أنه أراد بقوله: طويل التغني طويل الاستغناء، فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى بالتغني في هذا الموضع الإقامة، من قول العرب: غني فلان بمكان كذا إذا أقام به، ومنه قوله تعالى: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} [سورة الأعراف:92] واستشهاده بقول الآخر:

كلانـــا غنـــي عـــن أخيـــه حياتـــه ونحـــن إذا متنـــا أشـــد تغانيـــا

فإنه إغفال منه؛ وذلك لأن التغاني تفاعل من تغنى إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه كما يقال: تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه، وتشاتما وتقاتلا، ومن قال هذا في فعل اثنين."

يعني صيغة المفاعلة في الأصل تكون بين اثنين غالبًا، بين اثنين غالبًا وإلا سافر مسافر واحد سافر مسافرة، سافر من المفاعلة، من المسافرة، مثل طارق النعل وعاقب اللص كلها من واحد.

"ومن قال هذا في فعل اثنين لم يجز أن يقول مثله في فعل الواحد فيقول: تغانى زيد وتضارب عمرو، وذلك غير جائز أن يقول: تغنى زيد بمعنى استغنى إلا أن يريد به قائله أنه أظهر الاستغناء وهو غير مستغنٍ، كما يقال تجلَّد فلان إذا أظهر جلدًا من نفسه وهو غير جليد وتشجع وتكرم، فإن وجَّه موجِّه التغني بالقرآن إلى هذا المعنى على بعده من مفهوم كلام العرب كانت المصيبة في خطئه في ذلك أعظم؛ لأنه يوجب على من تأوله أن يكون الله تعالى ذكره لم يأذن لنبيه أن يستغني بالقرآن، وإنما أذن له أن يظهر من نفسه لنفسه خلاف ما هو به من الحال، وهذا لا يخفى فساده.

قال: ومما يبين فساد تأويل ابن عيينة أيضًا أن الاستغناء عن الناس بالقرآن من المحال أن يوصف أحد به أنه يؤذن له فيه أو لا يؤذن إلا أن يكون الأذن عند ابن عيينة بمعنى الإذن الذي هو إطلاق وإباحة، وإن كان كذاك فهو غلط من وجهين أحدهما: من اللغة، والثاني: من إحالة المعنى عن وجهه، أما اللغة فإن الأذن مصدر قوله: أذن فلان لكلام فلان فهو يأذن له إذا استمع له وأنصت، كما قال تعالى: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [سورة الانشقاق:2] بمعنى سمعت لربها وحق لها ذلك كما قال عدي بن زيد: إن همي في سماع وأَذَن بمعنى في سماع واستماع فمعنى قوله: «ما أذن الله لشيء» إنما هو ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لنبي يتغنى بالقرآن.

وأما الإحالة في المعنى فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز وصفه بأنه مسموع ومأذون له انتهى كلام الطبري.

قال أبو الحسن بن بطال: وقد وقع الإشكال في هذه المسألة أيضا بما رواه ابن أبي شيبة قال: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني موسى بن عَلِي بن رباح."

عُلَي، ابن عُلَي.

أحسن الله إليك.

"قال: حدثني موسى بن عُلَي بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «تعلموا القرآن وتغنوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده

لهو أشد تفصيا من المخاض من العقل» قال: وذكر عمر بن شبة قال: ذكر لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله: يتغنى بالقرآن يستغني به فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئًا. حدثنا ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير قال: كانت لداود نبي الله -صلى الله عليه وسلم- معزفة يتغنى عليها يبكي ويبكي. وقال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحنًا تكون فيهن ويقرأ قراءة يَطرب منها الجموع، وسئل الشافعي -رحمه الله- عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد به الاستغناء لقال.."

يطرب منها.. يقرأ قراءة يطرب منها..

"وقال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحنًا تكون فيهن ويقرأ قراءة يَطرب منها الجموع."

الأعداد الغفيرة الكثيرة.

"وسئل الشافعي -رحمه الله- عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا لو أراد به الاستغناء لقال: من لم يستغن بالقرآن ولكن لما قال: «يتغنى بالقرآن» علمنا أنه أراد به التغني، قالوا: ولأن تزيينه وتحسين الصوت به والتطريب بقراءته أوقع في النفوس وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع ومعانيه إلى القلوب، وذلك عون على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجعل في الدواء؛ لتنفذه إلى موضع الداء وبمنزلة الأفاويه والطيب.."

ويكون الشفاء بسبب الدواء لا بسبب ما أدخل عليه.

"وبمنزلة الأفاويه والطيب الذي يُجعل في الطعام؛ لتكون الطبيعة أدعى له قبولاً، وبمنزلة الطيب والتحلي وتجمل المرأة لبعلها ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح، قالوا: ولا بد للنفس من طرب واشتياق إلى الغناء فعوضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عوضت عن كل محرم ومكروه بما هو خير لها منه، وكما عوضت عن الاستقسام بالأزلام بالاستخارة التي هي محض التوحيد والتوكل، وعن السفاح بالنكاح، وعن القمار بالمراهنة بالنصال وسباق الخيل، وعن السماع الشيطاني بالسماع الرحماني القرآني، ونظائره كثيرة جدًّا، قالوا: والمحرم لا بد أن يشتمل على مفسدة راجحة أو خالصة وقراءة التطريب والألحان لا تتضمن شيئًا من ذلك فإنها لا تُخرِج الكلام عن وضعه، ولا تحول بين السامع وبين فهمه، ولو كانت متضمنة لزيادة الحروف كما ظن المانع منها لأخرجت الكلمة عن موضعها، وحالت بين السامع وبين فهمها، ولم يدر ما معناها، والواقع بخلاف ذلك قالوا: وهذا التطريب.."

الخلاف بين أهل العلم في مثل هذه المسألة شبه لفظي، المجيز لهذا الفعل لا يمكن أن يجيز ما يشبه أغاني المجان والفجار ولو كانت بالقرآن، إذا جعله على أوزانهم وأداه على طرائقهم، هذا لا يمكن أن يجيزه أحد، وأما مجرد تحسين الصوت فهذا يتفق عليه جميع الأطراف.

"قالوا: وهذا التطريب والتلحين أمر راجع إلى كيفية الأداء، وتارة يكون سليقة وطبيعة وتارة يكون تكلفًا وتعملاً، وكيفيات الأداء لا تخرج الكلام عن وضع مفرداته، بل هي صفات لصوت المؤدي جارية مجرى ترقيقه وتفخيمه وإمالته، وجارية مجرى مدود القراء الطويلة والمتوسطة، لكن تلك الكيفيات متعلقة بالحروف، وكيفيات الألحان والتطريب متعلقة بالأصوات والآثار في هذه الكيفيات لا يمكن نقلها بخلاف كيفيات أداء الحروف، فلهذا نقلت تلك.."

نعم لا يمكن نقلها، الأداء لا يمكن نقله، ولذا ينازَع في كون الأداء متواترًا، نعم الحروف متواترة، ونقله المتوارث المتواتر عن أهل العلم معروف، نقول: هو قطعي، تواتر الطبقة معروف عند أهل العلم التي نقل بها القرآن من نزوله إلى أن يرفع، لكن أداؤه لو كان متواترًا التواتر حجة قطعية لا يختلف ولا يتغير، لا ما وجد هذا الاختلاف في قراءة القراء، ولذا بعضهم يرى أن الأداء غير متواتر، ولذا يكون الخلاف فيه شيء من السعة، وإذا قلنا: إن الأداء متواتر لا يجوز الخروج عن قراءات القراءات التي رسموها، بل يجب أن يؤدى على القوانين التي قننوها ورسموها، منهم من يؤثم من يقرأ القرآن بغير تجويد، ومنهم من يرى أنه لا يأثم، وأن قولهم: إنه يجب قراءة القرآن بالتجويد كما أنزل بالترتيل، الوجوب بمعنى اللزوم، مثل يجب رفع الفاعل، يجب نصب المفعول، يعني الوجوب الاصطلاحي، لا أن قارئه على غير هذه الكيفية ما لم يلحن، أو ما لم يخرجه عن المراد منه، فإن الأمر فيه شيء من السعة. ابن الجزري يقول:

من لم يجود القرآن آثم

فبيَّن أن المراد عنده المراد بالوجوب القسيم للأحكام التكليفية.

"فلهذا نقلت تلك بألفاظها، ولم يمكن نقل هذه بألفاظها، بل نقل منها ما أمكن نقله كترجيع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سورة الفتح بقوله: «آ آ آ» قالوا: والتطريب والتلحين راجع إلى أمرين مد وترجيع، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يمد صوته بالقراءة، يمد الرحمن، ويمد الرحيم، وثبت عنه الترجيع كما تقدم. قال المانعون من ذلك: الحجة لنا من وجوه أحدها: ما رواه حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم-: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق فإنه سيجيء..».

ولذا الحافظ ابن رجب -رحمه الله- اشترط في جواز النشيد والإنشاد أن يؤدى بلحون العرب لا بلحون الأعاجم، ولا بلحون أهل الفسق، حتى النشيد في الكلام العادي في الشعر العربي إذا سلمت ألفاظه من المادة الممنوعة من الكلام الذي فيه فحش أو خنا أو مدح من لا يستحق المدح أو تشبيب أو فخر أو هجاء، إذا سلم من ذلك سلمت مادته وأدي على لحون العرب جاز، والنبي -عليه الصلاة والسلام- أنشد الشعر بين يديه أنشد الشعر بين يديه، فإذا أدي على لحون العرب جاز وإلا فلا.

"«فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوح، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه أبو الحسن رزين في تجريد الصحاح، ورواه أبو عبد الله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، واحتج به القاضي أبو يعلى في الجامع، واحتج معه بحديث آخر أنه -صلى الله عليه وسلم- ذكر شرائط الساعة وذكر أشياء منها: «أن يتخذ القرآن مزامير يقدمون أحدهم..»."

نعم وجد في القرن الماضي في منتصفه إلى آخره من هذه صفة قراءته، ولذا تجدون في ترجمة بعض القراء الذين يقرؤون القرآن على هذه الصفة، تجدون في ترجمته أنه يجيد الأغاني والموسيقى والمزامير، وجد هذا في ترجمة من شهر بالقراءة، والله المستعان.

"«يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم غناء» قالوا: وقد جاء زياد النهدي إلى أنس -رضي الله عنه- مع القراء فقيل له: اقرأ فرفع صوته وطرَّب وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء وقال: يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون، وكان إذا رأى شيئًا ينكره رفع الخرقة عن وجهه، قالوا: وقد منع النبي- صلى الله عليه وسلم- المؤذن المطرب في أذانه من التطريب كما روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال.."

الآن الخرقة السوداء هذه ما فائدتها؟ الآن الذي أنكر على هذا القارئ على وجهه خرقة سوداء.

طالب: أنس..

أنس -رضي الله عنها- ما الفائدة منها؟ يعني لما كبرت سنه وضعف بصره صار النور يؤثر عليه مثل النظارات الشمسية، ما هو يتعبد بها مثل ما يتعبد المتصوفة بخرقهم، لا.

"قال كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مؤذن يطرب فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : «إن الأذان سهل سمح، فإن كان أذانك سهلاً سمحًا وإلا فلا تؤذن»، رواه الدارقطني. وروى عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: كانت قراءة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مدًّا ليس فيها ترجيع قالوا والترجيع والتطريب يتضمن همز ما ليس بمهموز ومد ما ليس بممدود وترجيع الألف الواحد ألفات والواو واوات والياء ياءات، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك غير جائز قالوا: ولا حد لما يجوز من ذلك وما لا يجوز منه، فإن حد بحد معين كان تحكمًا في كتاب الله تعالى ودينه، وإن لم يحد بحد أفضى إلى أن يطلق لفاعله ترديد الأصوات وكثرة الترجيعات والتنويع في أصناف.."

لكن تحديد المدود بالحركات هذا يمد حركتين، وهذا أربع، وهذا ست له أصل أو ما له أصل؟ هم يقولون: أخذوه بالتلقي، كل واحد عن شيخه إلى أن يصل للنبي -عليه الصلاة والسلام- وهذا محل الخلاف الذي هو متواتر أو غير متواتر، الذي هو الأداء هو الأصل، إذا أردنا الأصل مثل هذه الأمور يُنَص عليها كما نُص على قوله في المرة الثالثة «سبحان الملك القدوس» يمد

بها صوته، يمد الرحمن، يمد الرحيم، هذه أمور ثابتة، لكن ما تُرك ولم يُنقَل لعل الأمر فيه شيء من السعة.

" وإن لم يحد بحد أفضى إلى أن يطلق لفاعله ترديد الأصوات وكثرة الترجيعات والتنويع في أصناف الإيقاعات والألحان المشبّهة للغناء."

المُشْبِهة.

"المُشْبِهة للغناء.."

أحسن الله إليك.

ريِّض ابن القيم -رحمه الله- ما ينتهي.

حتى ما تقرأ الأسبوع الجاي، مقدَّم.

"كما يفعل أهل الغناء بالأبيات وكما يفعله كثير من القراء أمام الجنائز، ويفعله كثير من قراء الأصوات مما يتضمن تغيير كتاب الله والغناء به على نحو ألحان الشعر والغناء، ويوقعون الإيقاعات عليه مثل الغناء سواء اجتراءً على الله وكتابه وتلاعبًا بالقرآن وركونًا إلى تزيين الشيطان، ولا يجيز ذلك أحد من علماء الإسلام، ومعلوم أن التطريب والتلحين ذريعة مفضية إلى هذا إفضاء قريبًا، فالمنع منه كالمنع من الذرائع الموصلة إلى الحرام فهذا إقدام الفريقين ومنتهى احتجاج الطائفتين."

نهاية إقدام والا أقدام؟

أقدام أقدام..

أحسن الله إليك.

"فهذا نهاية أقدام الفريقين.."

يعني وقفوا عند هذا، وقفوا عند هذا.

أحسن الله إليك.

"ومنتهى احتجاج الطائفتين وفصل النزاع أن يقال: التطريب والتغني على وجهين أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين كما قال أبو موسى الأشعري للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا، والحزين ومن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه؛ لموافقته الطبع وعدم التكلف والتصنع فيه فهو مطبوع لا متطبع وكلِف لا متكلِّف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعًا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها، ويعلم قطعًا أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقرآن ويقرؤونه بشجى تارة، وبطرب تارة، وبشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته -صلى الله عليه وسلم-."